محرر القدس

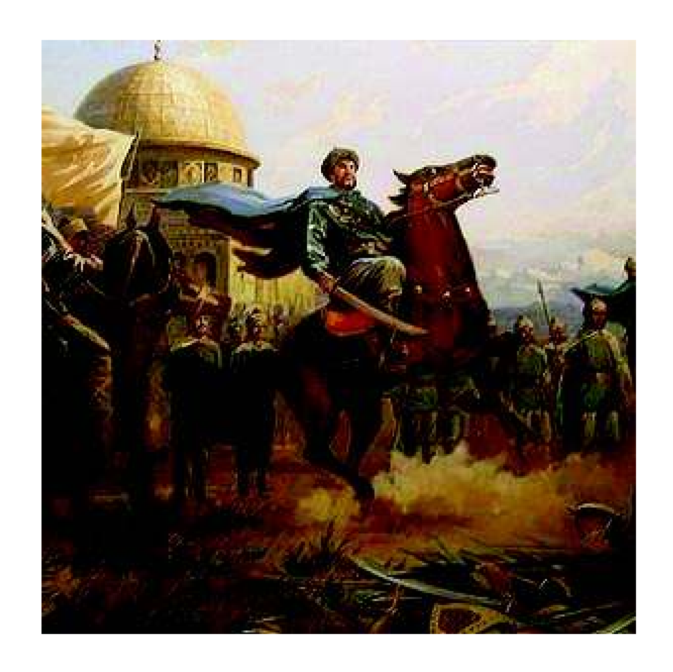
صلاح الدين الأيوبى

محرر القدس

صلاح الدين الأيوبى

(الناصر صلاح الدين)

يوسف أبو الحجاج الأقصري



تقديـم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وبعد

هذا الإصدار موجز مختصر شديد الاختصار لسيرة بطل من أبطال العرب سيظل التاريخ العربي والإسلامي يذكره إلى ما شاء الله...

إنه صلاح الدين الأيوبي، محرر بيت المقدس من الصليبيين ومؤسس الدولة الأيوبية وقائد معركة حطين الشهيرة وصاحب الأعمال والأمجاد العظيمة.

- هو الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الذويني التكريتي المشهور بلقب صلاح الدين الأيوبي.

- هو قائد عسكري أسس الدولة الأيوبية التي وحدت مصر والشام والحجاز وتهامة واليمن في ظل الراية العباسية وذلك بعد أن قضي على الخلافة الفاطمية التي استمرت 262 سنة.



- قاد صلاح الدين الأيوبي عدة حملات ومعارك ضد الفرنجة وغيرهم من الصليبيين والأوربيين في سبيل استعادة الأراضي المقدسة التي كان الصليبيون قد استولوا عليها في أواخر القرن الحادي عشر، وقد تمكن في نهاية المكان من استعادة معظم أراضي فلسطين ولبنان بما فيها مدينة القدس وذلك بعد أن هزم جيش الصليبيين هزيمة مبكرة في معركة حطين.

- إنها محاولة مختصرة وموجزة للتذكير بهذا البطل الذي سيظل قدوة لكل قائد عربي حر وكل إنسان لا يقبل أن يستمر احتلال الأرض المقدسة في فلسطين وقريبًا ستعود القدس عربية كما كانت في عهد صلاح الدين الأيوبي.

والله الموفق والمستعان

المؤلف

يوسف أبو الحجاج الأقصرى

الاسكندرية ـ العجمى ـ مصر

اعرف صلاح الدين الأيوبي

الاسم بالكامل: يوسف بن أيوب.

الميلاد: عام 532هـ الموافق 1138م

مكان الميلاد: مدينة تكريت العراقية – زمن الدولة العباسية

الوفاة: عام 589هـ الموافق 1193م عن عمر يناهز 56 عامًا

مكان الوفاة: مدينة دمشق

مكان الدفن: الجامع الأموي – دمشق – سوريا

الديانة: مسلم سني

الزوجة: عصمة الدين خاتون

الأبناء: الأفضل – عثمان – الظاهر غازي

الأب: نجم الدين أيوب

الأخوة: توران شاه بن أيوب – العادل أبو بكر بن أيوب



الفصل الأول

موجز سيرة صلاح الدين الأيوبي





موجز سيرة صلاح الدين الأيوبي

- ولد صلاح الدين في تكريت بالعراق عام 532هـ الموافق 1138م في ليلة مغادرة والده نجم الدين أيوب قلعة تكريت حينما كان واليًا عليها.

- ويرجع نسب الأيوبيين إلى أيوب بن شاذي بن مروان من أهل مدينة دوين في أرمينيا، وقد اختلف المؤرخون في نسب العائلة الأيوبية، حيث أورد ابن الأثير في تاريخه أن أيوب بن شاذي بن مروان يرجع إلى الأكراد الروادية وهم فخذ من الهذبانية بينما يذكر أحمد بن خلكان ما نصه: (قال رجل فقيه عارف بما يقول (وهو من أهل دوين أن على باب دوين قرية يقال لها (أجدانقان) وجميع أهلها أكراد روادية، وكان شاذي قد أخذ والديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد ومن هناك نزلوا (تكريت) ومات شاذي بها وعلى قبره قبة داخل البلد، بيما يرفض بعض ملوك الأيوبيون هذا النسب وقالوا إنما نحن عرب نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم.

- الأيوبيون أنفسهم اختلفوا في نسبهم فالملك المعز إسماعيل

الأيوبي صاحب اليمن ارجع نسب بني أيوب إلى بني أمية وحين بلغ ذلك الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب قال (كذب إسماعيل ما نحن من بني أمية أصلاً) أما الأيوبيون ملوك دمشق فقد أثبتوا نسبهم إلى بني مرة بن عوف من بطون غطفان وقد أحضر هذا النسب على المعظم عيسى بن أحمد صاحب دمشق وأسمعه ابنه الملك الناصر صلاح الدين داوود.

كان نجم الدين والد صلاح الدين قد انتقل إلى بعلبك حيث أصبح واليًا عليها مدة سبع سنوات وانتقل إلى دمشق وقضى صلاح الدين طفولته في دمشق حيث أمضى فترة شبابه في بلاط الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي أمير دمشق والمصادر حول حياة صلاح الدين خلال هذه الفترة قليلة ومبعثرة، ولكن من المعروف أنه عشق دمشق عشقًا شديدًا وتلقى علومه فيها، وبرع في دراساته حتى قال عنه بعض معاصريه إنه كان عالمًا بالهندسة الإقليدية والرياضيات وعلوم الحساب والشريعة الإسلامية وتؤكد بعض المصادر أن صلاح الدين كان أكثر شغفًا بالعلوم الدينية والفقه الإسلامي والعلوم العسكرية بالاضافة إلى ذلك كان صلاح الدين ملمًا بعلم الأنساب والسير الذاتية وتاريخ العرب والشعر حيث حفظ ديوان الحماسة لأبي تمام عن ظهر قلب وأيضًا كان مغرمًا بالخيول العربية وعرف



أنقى سلالاتها دمًا...

- كانت الدولة العباسية قد تجزأت إلى عدة دويلات بحلول الوقت الذي ظهر فيه صلاح الدين في أواسط القرن الثاني عشر فكان الفاطميون يحكمون مصر ويدعون لخلفائهم على منابر المساجد ولا يعترفون بخلافة بغداد، وكان الصليبيون يحتلون الشاطئ الشرقي للبحر المتوشط من آسيا الصغرى إلى شبه جزيرة سيناء والأتابكة يسيطرون على شمال العراق وسوريا.

- لمع نجم صلاح الدين في سماء المعارك والقيادة العسكرية عندما أقبل الوزير الفاطمي شاور بن مجبر السعدي إلى الشام فارًا من مصر وهربًا من الوزير ضرغام بن عامر بن سوار المنذري اللخمي الملقبُ (فارس المسلمين) لما استولى على الدولة المصرية وقهره وأخذ مكانه في الوزارة وقتل ولده الأكبر (طئ بن شاور) فذهب شاور مستغيثًا بالملك نور الدين زنكي في دمشق وذلك في شهر رمضان عام 558هـ ودخل دمشق في 23 من ذي القعدة من السنة نفسها فوجه نور الدين معه أسد الدين شرِكوه بن شاذي في جماعة من عسكره وكان فيهم صلاح الدين ابن الستة والعشرين ربيعًا.

- كان لنور الدين زنكي في إرسال هذا الجيش هدفان الأول قضاء حق (شاور) لأنه قصده، والثاني أنه أراد استعلام أحوال مصر فإنه

كان يبلغه إنها ضعيفة من جهة الجند وأحوالها في غاية الاختلال فقصد الكشف عن حقيقة ذلك.

- كان نور الدين زنكي كثير الاعتماد على شيركوه لشجاعته ومعرفته وأمانته فانتدبه لذلك وجعل أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين مقدم عسكره وخرجوا من دمشق على رأس ذلك الجيش في جمادى الأولى عام 559هـ ودخلوا مصر وسيطروا عليها واستولوا على الأمر في رجب من السنة نفسها.

- ولما وصل أسد الدين وشاور إلى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الوزير ضرغام وحصل لشاور مقصوده وعاد إلى منصبه وتمهدت قواعده واستقرت أموره غدر ضرغام بأسد الدين شيركوه واستند بالفرنجة عليه، الذين أتوا أفواجًا وحاصروا (أسد الدين شيركوه) وجنوده بمن فيهم صلاح الدين في بلبيس لمدة ثلاثة أشهر، وكان أسد الدين قد شاهد هذه البلاد وعرف أحوالها ولكن تحت ضغط من هجمات الفرنجة في مملكة القدس الصليبية والحملات المتتالية بالاضافة إلى قلة جنده أُجبر على الانسحاب بفضل شجاعة جنوده وصمودهم وفي مقدمتهم قائدهم الشاب صلاح الدين.

- جهز أسد الدين جيشًا أكثر عددًا وعدة وأنفذ معه نور الدين زنكي العساكر وصلاح الدين وكان وصول أسد الدين وجيشه مقاربًا

لوصول جيش الفرنجة المتجه لمصر أيضًا ونشبت معركة كبرى في صحراء الجيزة أظهر فيها صلاح الدين بطولة نادرة وشجاعة فائقة حيث اتفق الفاطميون مع الفرنجة على جيش أسد الدين ومن هنا أصبح جيش الفاطميين والفرنجة يفوق جيش الشام عددًا فرأى (شيركوه) أن يجعل صلاح الدين على قلب الجيش لأنه كان واثقًا أن الفرنجة سيحملون على القلب ظنًا منهم أن شيركوه سيكون في القلب، وتولى شيركوه قيادة الميمنة مع شجعان من جيشه وسلمت الميسرة إلى جمع من القادة الكرد (الأكراد).

- ونجحت خطة (شيركوه) ففي بداية المعركة حمل الصليبيون على القلب حيث تقهقر جيش شيركوه حسب الخطة الموضوعة أمام هذا الهجوم ليطوقوهم بعد ذلك من خلال شيركوه وجنوده الذين في الميمنة في صورة من صور تكتيك الكماشة.

- ويعلل المؤرخون الأوروبيون هزيمة الصليبيين والفاطميين أمام جيش الشام بأن وعورة الأرض وكثافة الرمال وثقل الجياد الأوروبية والجنود الفرنجة المدرعين غير المدربين أسهمت في جعل الآية تنقلب عليهم فهزمهم جيش الشام وأظهر صلاح الدين بطولة فائقة ويكفي القول إنه استطاع أسر أحد قادة الجيش الصليبي عندما هاجم جناحه وهو القائد المعروف صاحب قيسارية.

- وكان هذا هو أول ظهور لصلاح الدين الأيوبي كقائد عسكري ماهر ومقاتل لا يستهان به على الإطلاق...

- وبعد هذا الانتصار توجه (أسد الدين) إلى مدينة الإسكندرية المعروفة بكرهها الشديد (لشاور) وفتحت أبوابها لأسد الدين وقائد قلب جيشه صلاح الدين .

- لم يستسلم (عموري الأول) ملك بيت المقدس و(شاور) لهزيمتهما من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي فقام الصليبيون والفاطميون بإعادة تنظيم جيشهما على الرغم من الخسائر الكبيرة التي لحقت بهما فضربوا حصارًا قاسيًا على الإسكندرية ومن هنا قرر أسد الدين (شيركوه) التسلل مع حاميته إلى خارج الإسكندرية واستخلف عليها صلاح الدين بقلب جيشه عليها في الوقت الذي بدأ نور الدين زنكي في هجومه على إمارة طرابلس ما أدى إلى خوف (عموري) الأول على قواته في الشام وتم عقد أول فصل ما بين القوات، ثم الاتفاق على أن يغادر جيش صلاح الدين وأسد الدين مصر مقابل أن يخرج جيش الفرنجة أيضًا من مصر وتم تنفيذ الاتفاق في 18 أغسطس 1167م .

- وبعد عدة أسابيع عاد (أسد الدين) و(صلاح الدين) من دمشق إلى مصر مرة ثالثة وكان سبب ذلك أن الفرنجة جمعوا جيشهم

وخرجوا يريدون مصر نظرًا لتخلف (شـاور) عن دفع الإتـاوة إلى الحامية الصليبية فلما بلغ ذلك أسد الدين ونور الدين في الشام ذلك لم يسعهما الصبر فسارعًا إلى مصر ووصلا هناك في شهر ربيع الأول سنة 564هـ ودخل أسد الدين القاهرة في 7 ربيع الآخر 564هـ الموافق 8 يناير 1169م وتم القبض على شاور في 18 يناير وأصدر الخليفة الفاطمي (العاضد لدين الله) أمرًا بقتله.

- كانت مصر قبل قدوم صلاح الدين مقر الدولة الفاطمية ولم يكن للخليفة الفاطمي بحلول ذلك الوقت سوى الدعاء على المنابر، وكانت الأمور كلها بيد الوزراء، وكان وزير الدولة هو صاحب الأمر والنهي، لذا أصبح (أسد الدين شيركوه) عم صلاح الدين الأيوبي هو الرجل الأول في مصر ودام على هذا الحال وصلاح الدين الأيوبي يباشر الأمور مقررًا لها لمكان كفايته ودرايته وحُسن رأيه وسياسته طيلة شهرين من الزمن، وعندما توفي (أسـد الدين شيركوه) عم صلاح الدين الأيوبي أسند الخليفة الفاطمي الوزارة لصلاح الدين الأيوبي وذلك تحت ضغط من أمراء دمشق..

- أرسل الملك (عموري) الصليبي رسله لإرسال حملة صليبية جديدة إلى مصر لإسقاط صلاح الدين الأيوبي شارحًا خطورة وجود صلاح الدين الأيوبي والتغير في ميزان القوى في المنطقة فاستجاب

البابا إسكندر الثالث وبعث رسائل إلى ملوك أوروبا، ولكنها لم تجد آذانًا صاغية في حين نجح الرسول المرسل إلى القسطنطينية بسبب إدراك الإمبراطور عمانوئيل كومينينوس اختلال توازن القوى في المنطقة بعد ظهور صلاح الدين الأيوبي كقائد عسكري قوي، فتعاون الأسطول الفرنجي مع حملة عموري الأول الذي وجد الفرصة مناسبة لانشغال الملك نور الدين زنكي في مشاكله الداخلية إضافة إلى وفاة أسد الدين شيركوه وتعيين صلاح الدين الأيوبي خلفًا له...

- استعد صلاح الدين الأيوبي بشكل جيد حيث تخلص من حرس قصر الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله واستبدله بجيش من الموالين له، واستعمل الصليبيون حملتهم بحصار مدينة دمياط في صفر 565هـ الموافق 25 أكتوبر 1169، فأرسل صلاح الدين الأيوبي قواته بقيادة شهاب الدين محمود وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين زنكي يخبره بضرورة إرسال العون والمدد قائلاً له: (إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج) ورد نور الدين قائلاً: (إني لأستحي من الله أن ابتسم والمسلمون محاصرون بالفرنج، وبالفعل سار نور الدين بجيشه إلى الإمارات الصليبية في بلاد الشام وقام بشن الغارات على حصون الصليبيين ليخفف الضغط عن مصر، وقامت حامية دمياط بدور أساسي في الدفاع عن المدينة ومنعت

وصول سفن الروم إليها والأكثر من ذلك أنه هطلت أمطار غزيرة وحولت المعسكر الصليبي إلى مستنقع فتهيأوا للرحيل وغادروا دمياط بعد أن حاصروها لمدة خمسين يومًا، وعندما أبحر الأسطول البيزنطي هبت عاصفة عنيفة ولم يتمكن البحارة الفرنج الذين كادوا يهلكوا جوعًا من السيطرة على سفنهم فغرق معظمهم.

- لاحق صلاح الدين الأيوبي وجيشه فلول الجيش الصليبي المنسحب شمالاً حتى اشتبك معهم في مدينة دير البلح عام 1170م وانتصر عليهم، وبعد هذا الانتصار ثبت صلاح الدين الأيوبي وجيشه أقدامهم في مصر وأصبح من الواضح أن الدولة الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة، فأرسل نور الدين زنكي إلى صلاح الدين الأيوبي طالبًا إياه بإيقاف الدعاء للخليفة الفاطمي والدعاء للخليفة العباسي في مساجد مصر، ولم يرغب صلاح الدين الأيوبي في الامتثال لهذا الأمر فى حينه خوفًا من النفوذ الشيعي في مصر وأخذ يراوغ في تأخير الأمر، إلا أن نور الدين زنكي هدد صلاح الدين الأيوبي بالحضور شخصيًا إلى القاهرة لتنفيذ ذلك بنفسه، فاتخذ صلاح الدين الأيوبي الإجراءات الشرطية اللازمة للتصدي لأي ثورات محتملة ولكن لم يتجرأ أحد على القيام بذلك إلى أن جاء شيخ سني من الموصل زائر وقام في المسجد الأزهر، وخطب للخليفة العباسي

المستضئ بأمر الله وذلك في أول جمعة من سنة 567هـ الموافق في شهر سبتمبر عام 1171م لتحذوا القاهرة كلها حذوه وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله على فراش الموت مريضًا، ولم يلبث (العاضد) طويلاً حتى فارق الحياة، فأصبح صلاح الدين هو الحاكم الفعلي لمصر، وليس لأحد فيها كلمة سواه، ونقل صلاح الدين الأيوبي أسرته ووالده نجم الدين إلى مصر ليكونوا أعوانًا مخلصين له، وبهذا زالت الدولة الفاطمية تمامًا بعد أن استمرت 262 عامًا.

- أخذ صلاح الدين الأيوبي يقوي مركزه في مصر بعد زوال الدولة الفاطمية وسعى من أجل الاستقلال بها فعمل على كسب محبة المصريين وأسند مناصب الدولة إلى أهل الثقة وعزل قضاة الشيعة واستبدلهم بقضاة شافعيون، وألغى مجالس الدعوة وأزال أصول المذهب الشيعي الإسماعيلي وأزال من الآذان العبارات الزائدة مثل (حي على خير العمل، وعلى خير البشر) و(أشهد أن علي ولي الله) وأمر في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة 565هـ الموافق سنة 1169م بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون جميعًا، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، كما أسس مدرستين كبيرتين في

الفسطاط هما المدرسة الناصرية والمدرسة الكاملية حتى يثبت مذهب أهل السُنة في البلاد، وكانت هاتان المدرستان تُلقنا علوم الشريعة وفق المذهبين المالكي والشافعي، وتخوف نور الدين زنكي من تزايد قوة صلاح الدين الأيوبي وكانت العلاقة بينهما على فتور أصلاً منذ أن تولى صلاح الدين الأيوبي الحكم في مصر، وبدأ هذا التوتر في العلاقة يظهر عندما تأخر صلاح الدين الأيوبي في الخطبة للخليفة العباسي في بغداد حتى إن نورالدين زنكي هدد صلاح الدين الأيوبي بالمسير إليه لتنفيذ ذلك، كما ظهر ذلك أيضًا عندما أرسل صلاح الدين الأيوبي إلى نور الدين زنكي أن يرسل إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال له (أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد وازداد الخلاف بينهما في سنة 567هـ الموافق 1172م عندما اتفقا على حصار قلعتي الكرك ومدينة الشوبك في صحراء الأردن، ورجع صلاح الدين الأيوبي قبل أن يلتقي بنور الدين زنكي خوفًا من أن يعزله الأخير عن مصر، وأن يؤدى السيطرة على القلعتين إلى فتح الطريق أمام نور الدين زنكي إلى القاهرة، فانسحب صلاح الدين الأيوبي متذرعًا بالأوضاع الخطيرة في مصر فعظم الأمر على نور الدين زنكي حتى قرر المسير إلى مصر مهددًا صلاح الدين الأيوبي وعندما علم صلاح الدين الأيوبي بذلك جمع مقربيه

وشاورهم بالأمر فمنهم مَن نصح بمقاتلة نور الدين زنكي ولكن والده وخاله منعاه من ذلك وطالبه والده بإرسال رسائل الاعتذار إلى نور الدين زنكي والتبرير له بأفعاله، لكن نور الدين زنكي لم يقتنع بأي من تلك التبريرات وعزم على تسيير حملة إلى مصر لخلع صلاح الدين الأيوبي في أقرب فرصة متاحة.

- في شهر مايو 1174م أصيب نور الدين زنكي بالذبحة الصدرية وبقي على فراش المرض أحد عشر يومًا ليتوفى في 11 شوال 569هـ الموافق 15 مايو 1174م وهو في التاسعة والخمسين من عمره، وبوفاة نور الدين أصبح صلاح الدين الأيوبي سيد مصر الأوحد بشكل فعلي حيث استقل عن كل تبعية سياسية ويُقال إنه أقسم آنذاك على أن يصبح سيفًا مسلولاً على أعدائه وأعداء الإسلام، وأصبح هو رأس أقوى سلالة إسلامية حاكمة في ذلك العهد وهي السلالة الأيوبية لذا جرت عادة المؤرخين على تسمية المناطق التي خضعت لسلطانه وسلطان تابعيه بالدولة الأيوبية.

- كان نور الدين زنكي قد استخلف ولده الملك الصالح إسماعيل ذي الأحد عشر ربيعًا أميرًا على دمشق، وبعد أن توفي نور الدين كان أمام صلاح الدين الأيوبي خياران أحلاهما مُر، إما أن يُهاجم الممالك الصليبية من مصر، أو أن ينتظر حتى يستنجد به الملك

الصالح خصوصًا أنه ما زال صبيًا لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك، كذلك كان أمام صلاح الدين الأيوبي خيار آخر حاسم وهو أن يدخل دمشق ويسيطر عليها ويتولى شئون البلاد بنفسه ويحضرها لقتال الصليبيين غير أنه تردد في إتيان الخيار الأخير، لذا فضل صلاح الدين الأيوبي الانتظار حتى يدعوه الملك الصالح.

- لقد تولى أعمال الوصاية على الملك الصالح إسماعيل وتدبير ملكه شمس الدين بن المقدم فأخذ الأمراء النوريون في الشام يتنافسون كل منهم يعمل على إضعاف الآخر والكيد له والإيقاع به والملك الصغير لا يدري من الأمر شيئًا بل كان ألعوبة في يد أولئك الأمراء الذين كانوا يتصارعون للوصول إلى الحكم وتحقيق مآربهم الشخصية.

- نهض سيف الدين ابن عم الملك الصالح وصاحب الموصل واستولى على ما كان لنور الدين الزنكي من البلاد في أرض الجزيرة وركن الأمراء الآخرون إلى الاستقلال بما في أيديهم من الولايات، ولجأ البعض الآخر إلى مهادنة الفرنجة الصليبيِن ليتقوا بهم ضد الأمراء الآخرين وهكذا وصلت بلاد الشام وما حولها إلى حالة يرى لها من التفرق والانقسام والصراع على الحكم وكأن الأقدار هيأت لهم صلاح الدين الأيوبي لينقذ تلك البلاد من هذا الانقسام الشائن والتفرقة الممقوتة.

- لقد كان صلاح الدين الأيوبي على علم بكل ما كان يجرى في بلاد الشام من فوضى وصراع وقلاقل وكان يراقب الأحداث مراقبة دقيقة، وكان ينتهز الفرصة الملائمة للتدخل هناك وكان من سياسته ألا يثير غضب أهل الشام عليه في تدخل غير ملائم وغير محسوب خشية أن يقفوا ضده ولهذا كان على الدوام يكتب إلى الملك الصالح إسماعيل ويظهر له خضوعه وولاءه وضرب النقود باسمه وخطب له على المنابر وبالتالي أظهر للشاميين شدة خوفه على مصالح الملك الصغير وعلى مصالح أهل الشام ذاتهم لذا عندما علم الدمشقيون وأهل الشام أن سيف الدين استولى على بلاد الجزيرة ليستقل بها وأن شمس الدين ابن المقدم ووصى الملك الصغير قدهادن الفرنجة الصليبيين في بيت المقدس وأن الأمراء النوريين أصبحوا يتنافسون على الحكم للوصول إلى أغراضهم الشخصية فلم يجدوا بدًا سوى أن يراسلوا صلاح الدين الأيوبي لإنقاذهم مما هم فيه والحد من استمرار الفوضى والفتن التي سادت بلاد الشام، بل طلبوا منه أن يحضر بنفسه على رأس جيشه ليتولى الأمور بشخصه لينقذ بلاد الشام من خطر داهم وشر محدق وبلاء عظيم.

- استجاب صلاح الدين الأيوبي لنداء أهل الشام ولم يتأخر لحظة بل أسرع بالمسير واخترق الصحراء بجيشه دون أن يكترث

بوجود الفرنجة بينه وبين دمشق ثقة بالله وبنفسه واعتمادًا منه على الله، وترك صلاح الدين الأيوبي مصر ووصل (بصرى) وقابله أميرها بالترحاب والتكريم وبعدها رحل إلى دمشق فوصلها في شهر ربيع الأول عام 570هـ الموافق 1174م، ودخل دار أبيه هناك وجلس فيها قليلاً بينما كان جنوده يحاصرون القلعة حتى سلمت له واستولى على ما فيها من أموال وكنوز وقام بتوزيعها على الفقراء والمستحقين ليحقق مبادئ العدالة الاجتماعية ويقضي على الفقر بما يتفق مع عدل الإسلام، وقد خرجت الوفود الشعبية في مواكبها لتُعبر عن فرحتها الكبرى ابتهاجًا بدخول الرجل الذي تُعقد عليه الآمال العريضة في توحيد البلاد.

– وجلس صلاح الدين الأيوبي في دار العدل بدمشق يرفع المظالم ويُعيد الحقوق إلى أصحابها ويُبطل ما كان الولاة قد استجدوه من الضرائب غير العادلة، وبعد أن رسخت أقدام صلاح الدين الأيوبي في دمشق ذهب ليؤكد في مكاتباته ومحادثاته المرة تلو المرة أنه ماجاء إلى بلاد الشام إلا لنصرة ابن سيده الملك الصالح إسماعيل ومن ذلك ما قاله لرسول حلب بعد امتلاكه زمام الأمور في دمشق، قال له يا هذا إعلم أنني ما وصلت إلى الشام إلا لجمع كلمة الإسلام وتهذيب الأمور وسد الثغور وكف عادية المعتدين..

- وبعد أن انتهى صلاح الدين الأيوبي من فتح دمشق أقام فيها قليلاً بعد أن أصلح ما فسد فيها ورتب شئونها وسلمها إلى (سيف الإسلام طغكتين) ثم انحدر منها إلى حمص ففتحها دون قلعتها وترك مَنْ يحاصرها ويحمي المدينة ويدير شئونها ثم سار إلى حماة وامتنع والي حماة أولاً عن الاستسلام ولكن صلاح الدين الأيوبي أعلمه أنه جاء ليحفظ البلاد عن الفرنج ويسترد ما استولى عليه سيف الدين صاحب الموصل من البلاد في الجزيرة وأنه في طاعة الملك الصالح إسماعيل فاقتنع والي حماة من كلامه وسلمه حماة وقبل أن يكون رسولاً لصلاح الدين الأيوبي إلى صاحب حلب الذي اغتصب ولاية حلب من حاكمها الأصلي شمس الدين بن الراية وأودعه السجن هو وأولاده وغيره من الأمراء ثم اتخاذه الى الفرنجة ليتقوى بهم، وعندما وصل رسول صلاح الدين الأيوبي إليه أودعه هو الآخر السجن وأرسل إلى شيخ الطائفة الإسماعيلية يطلب منه النصرة والمؤازرة، فلما خاب في متمناه عمد إلى الفرنجة ليستعين بهم على قتال صلاح الدين الأيوبي.

- أرسل الفرنجة جيشًا لمحاربة صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام وذلك بقيادة ريموند الثالث وتوجه صلاح الدين الأيوبي إلى قتال الفرنجة جهة حمص، ولكن الفرنج لما علموا أن صلاح الدين

الأيوبي يقصدهم عادوا من حيث أتوا وسار صلاح الدين الأيوبي عائدًا إلى دمشق واستولى في طريقه على بعلبك وحررها من الفرنجة ومن المصاعب التي واجهت صلاح الدين الأيوبي في هذه الرحلة كانت تألب الأمراء النوريون ضده وانقلابهم عليه لما وصل إليه جيش صلاح الدين الأيوبي من قوة وما استولى عليه من البلاد الشامية فخافوا أن يتمكن أكثر ويصبح الأمر إليه لذا حرصوا على تكوين الجيوش الخاصة بهم لمواجهته.

- أراد صلاح الدين الأيوبي معالجة أمور النوريين بالحكمة فراسلهم في الصلح ورغبهم في حقن دماء المسلمين وحتى لا يتخذ الفرنجة من هذا النزاع سبيلاً إلى إثارة الفتنة وعندما رفضوا جهز لهم وخرج يقصدهم ونازلهم بالقرب من حماة وانتصر عليهم في اليوم التاسع من رمضان عام 570هـ انتصارًا حاسمًا، وبعد هذه الهزيمة عاد صاحب الموصل يستعد ثانية لقتال صلاح الدين الأيوبي ولكن صلاح الدين الأيوبي لحق به وتقابلا في مكان يعرف بتل السلطان وانتصر جنود صلاح الدين الأيوبي على صاحب الموصل انتصارًا باهرًا، أما صلاح الدين الأيوبي بعد انتصاره في الموصل ذهب إلى (بزاعة) وتسلم قلعتها ثم إلى (منبج) ثم قصد قلعة (عزاز) ثم توجه مسرعًا إلى حلب ثانية وفي أثناء حصاره لحلب خرجت ابنة

نور الدين زنكي وأخت الملك الصالح فقابلهما صلاح الدين الأيوبي بالحفاوة والإكرام وأعطاهما من المال والهدايا الكثير وسألها عما يطلبه قومها وردها إلى حلب بما يليق بمقام أبيها، ولما رأى الملك الصالح ما فعله صلاح الدين الأيوبي اتفق على الصلح على أن تكون البلاد التي افتتحها صلاح الدين الأيوبي بيده وتحت حكمه وبموجب هذا الصلح أصبح صلاح الدين الأيوبي حاكمًا على دمشق وحمص وحماه والمعرة وما قارب هذه البلاد من المدن الصغيرة والقلاع ولم يكن للملك الصالح سوى حلب وما قاربها.

- وبعد هذا الصلح رجع صلاح الدين الأيوبي إلى مصر ليتفقد أمرها وينظم أمورها وكان ذلك عام 576هـ، ولم يكد صلاح الدين الأيوبي يستقر في مصر حتى وافاه الخبر بموت الملك الصالح إسماعيل وكان له من العمر 19 عامًا وأوصى أن يكون الملك من بعده لابن عمه (عز الدين مسعود) وإلى الموصل إذ ذاك وبلغ (عز الدين مسعود) وصية الملك الصالح فغادر فورًا الموصل إلى حلب ليتسلم زمام الملك هناك، وما كاد يطيب له المكان حتى كتب له أخوه (عماد الدين) والي سنجار في أن يستبدل (عز الدين مسعود) سنجار بحلب فأجابه إلى ما طلب ورحل (عماد الدين) إلى حلب وتسلمها منه وسلم سنجار إلى أخيه (عز الدين مسعود) وكان ذلك في 13 محرم عام 578هـ.

- علم صلاح الدين الأيوبي بالأمر وكاتب عماد الدين الذي وافق على تسليم (حلب) لصلاح الدين الأيوبي، وأخيرًا استطاع صلاح الدين فتح حلب ودخلها بين فرح الأهالي وسرورهم في 17 صفر عام 579هـ.

- ولم يكن بمقدور صلاح الدين الأيوبي أن ينتصر على الفرنجة الصليبيين ويحرر بيت المقدس وحال العرب في فرقة وتشتت بل حرص كل الحرص على توحيد بلاد الشام المواجهة للقدس المحتلة لأنه كان على يقين أن الاتحاد قوة وأنه لا سبيل للعزة والنصر في ظل الفرقة ما بين الشعوب العربية خاصة تلك التي تواجه العدو الغاصب المحتل لذا حرص صلاح الدين الأيوبي على توحيد البلاد العربية خاصة مصر وبلاد الشام وغيرها من البلدان التي كانت تحت إمرته .

- ومنذ أن توفي السلطان نور الدين تهيأت للبطل صلاح الدين الأيوبي الفرصة المواتية لتوحيد العالم الإسلامي تحت لوائه وإمرته، واستطاع بفضل مواهبه العسكرية وخبرته الحربية والسياسية أن يوحد البلاد العربية الواحدة تلو الأخرى، فقد كانت الطوائف في اليمن تتصارع وتقتتل قتالاً مريرًا مما عرض الوحدة الإسلامية للتفكك والتمزق، فكانت الحمدانية في صنعاء والنجاحية في (زبيد) تتنازعان على الحكم كما ظهر أيضًا دعي كاذب زعم أنه (المهدي

المنتظر) فأحدث بعض القلاقل والاضطرابات في بلاد اليمن، فانتشرت المذابح وعمت الفوضى وسادت الفتن فعز على صلاح الدين الأيوبي أن يرى الشعب العربي المسلم في اليمن يقتل بعضه بعضًا وتكيد الطائفة للطائفة الأخرى فأرسل توران شاه إلى بلاد اليمن لتخليصها من هذه الفتن ليضم اليمن إلى مصر والشام تحت إمرة واحدة.

– سار توران شاه بجنده عن طريق النيل حتى وصل إلى مدينة قوص ثم سار برًا حتى بلغ ساحل البحر الأحمر، ثم أبحر حتى وصل (جدة) ومنها صار إلى اليمن وتوغل في أرضها واستولى على مقاطعة (زبيد) وعلى بعض الحصون الأخرى، ويذكر بعض المؤرخين أن جيش صلاح الدين الأيوبي بقيادة (توران شاه) فتح ما ينوف عن ثمانين حصنًا ومدينة باليمن وقوبل منم أهل اليمن بالترحاب لما كان يعانونه من الفوضى والاضطراب بل كان اليمنيون أنفسهم يسهلون للقائد (توران شاه) مهمته فقد كان نواب القلاع يرسلون إليه مفاتيحها حقنًا للدماء ورغبة في الاستقرار، ولما تم فتح اليمن استشار (توران شاه) أصحابه خاصة في اختيار المكان المناسب ليتخذه موطنًا له ولجنده فوقع الاختيار على مدينة تعز فاتخذها مستقرًا وموطنًا.



وما إن تم فتح اليمن حتى ولي عليها صلاح الدين الأيوبي قائده وأخاه (توران شاه) ثم أخاه (طغكيس بن أيوب) الذي بقي فيها حتى مات عام 593هـ، وقد ظلت اليمن تحت الحكم الأيوبي أكثر من ثمانين عامٍ وحتى عام 652هـ. وفي نفس العام الذي استطاع فيه صلاح الدين الأيوبي بقواته أن يفتح اليمن استطاع أيضًا أن يفتح برقة وطرابلس والجزء الشرقي من تونس الحالية إلى قابس وكان ذلك عام 569هـ.

- في عام 579هـ استدعى صلاح الدين الأيوبي أخاه الملك العادل لحضور المؤتمر الإسلامي الذي عقد في دمشق لسفراء الأمراء المسلمين ومنهم شيخ الشيوخ (صدر الدين) و(شهاب الدين بشير) رسولا الخليفة الناصر لدين الله العباسي والقاضي (محيي الدين الشهرزوري) ، و(بهاء الدين بن شداد) سفيرا صاحب الموصل والسفير (معز الدين سنجر) صاحب الجزيرة وغيرهم كثير من السفراء وقد حاول صلاح الدين الأيوبي في هذا المؤتمر أن يقطع دابر الخلاف ما بين الأمراء والمسلمين وأن يُقيم بينهم الأخوة والوئام، وقد اجتمعت كلمة العرب في هذا المؤتمر على الاتحاد ولم يشذ في هذا الاجتماع سوى مندوب (الموصل) الذي دارت بينه وبين صلاح الدين الأيوبي مناقشات حادة لم تأتى بالنتيجة المرجوة،

وهكذا لم يستجب صاحب الموصل وحده إلى الانضواء تحت راية الأخوة الإسلامية ما اضطر صلاح الدين الأيوبي أن يحمل السلاح لردع صاحب الموصل ورده إلى الحق والرشد فتقدمت جيوش صلاح الدين إلى الموصل وحاصرتها ورضخ أخيرًا (عز الدين) صاحب الموصل لصلاح الدين الأيوبي، وتم الصلح بينهما عام 581هـ بمقتضى (معاهدة حران) على أن يُسلم (عز الدين) صاحب الموصل إلى صلاح الدين الأيوبي مدينة (شهرزور) وأعمالها وولاية (القرابلي) وجميع ما وراء نهر الزاب من أعمال ولاية (تفجاك) على أن تكون الخطبة والنقود باسم صلاح الدين الأيوبي وأن يخضع (عز الدين) صاحب الموصل لسياسة صلاح الدين الأيوبي..

- ويقول ابن واصل في كتابه (مفرج الكرب في تاريخ بني أيوب): إن صلاح الدين الأيوبي استطاع بعد (معاهدة حران) أن يحشد عساكر الموصل وسنجار والجزيرة وأربل وحران وديار بكر وغيرها تحت لواء واحد بعدما كانت شيعًا وأحزابًا ومن الأمور التي عمد إليها صلاح الدين الأيوبي في هذا الدور مراسلته للخليفة العباسي (المستضئ) فكتب إليه وزيره (القاضي الفاضل) كتابًا يذكر به ما لصلاح الدين الأيوبي على الخلافة في بغداد من مآثر كثيرة في جهاده ضد العدو وفتح مصر واليمن وإفريقيا وإقامة الخطبة

العباسية وتنفيذ تقليدا جامعا لمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما تشتمل عليه الدولة النورية وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفه وسيوف عساكر – ولمن يقيمه من أخ أو ولد بعده، فأجابه (المستضئ) لما أراد وأرسل إليه وفدًا بالتقليد بما شاء من الولايات وأفاض الخلع والهدايا على الوفد وعلى أقرباء السلطان وهكذا نجح صلاح الدين الأيوبي في توحيد كلمة العرب لمواجهة العدو الصليبي المحتل لبيت المقدس.



الفصل الثاني

أشهر السمات الشخصية للقائد صلاح الدين الأيوبي



(أشهر سمات شخصية صلاح الدين الأيوبي)

لكل منا شخصيته وسماته الشخصية التي تصنع كثيرًا من تاريخه سواء كان حاضره أو مستقبله.. والناصر صلاح الدين أو كما يقول المؤرخون صلاح الدين الأيوبي كان شخصية خاصة جدًا لها سماتها المميزة وصفاتها التي أصبحت قدوة ومنالاً لكل قائد يريد النجاح ويمكن القول إن أهم صلات صلاح الدين الأساسية هي التي تكون ظاهرة للعامة والخاصة على حد سواء.. إنها الصفات والسمات التي يراها الجميع من قريب ومن بعيد... وهى التي خلدت اسمه في التاريخ وجعلت له ذكرًا في العالمين.

وإليكم أظهر هذه الصفات وأميز هذه الأخلاق:

1 - تقواه وعبادته:

كان صلاح الدين الأيوبي إنسانًا تقيًا بمعنى كلمة الإنسان التقي العابد ولا شك أن تقوى الله وعبادته والخشية منه وحُسن الظن به والاعتماد عليه.. هي أول ما يجب أن يمتاز به القائد المسلم وأفضل

ما ينبغي أن يتصف به لأن الاعتصام بالسند الأكبر والاتصال بالله والاستعانة به تجعل من المسلم أسدًا كاسرًا لا يعرف الهزيمة وبطلاً مقدامًا لا يهاب المنية وشجاعًا لا يخشى جبارًا ولا يهاب عدوًا وهذه السمة من الإيمان والعبادة وهذه الظاهرة من الأقدام والشجاعة قد تحققت في القائد صلاح الدين الايوبى وإليكم ما كتبه القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد الذي عاصره واجتمع به وعرف أخباره يقول في كتابه «سيرة صلاح الدين» ما يلي مع بعض التصرف والاختصار:

وكان رحمه الله حسن العقيدة كثيرالذكر لله تعالى وقد أخذ عقيدته بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء.. وكان قد جمع له الشيخ (قطب الدين النيسابوري) عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم منذ الصغر.

وأما الصلاة: فإنه كان رحمه الله شديد المواظبة عليها.. وكان يواظب على السنن والرواتب وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ من الليل وإلا أتى بها قبل قيام الفجر.. ولقد رأيته قدس الله روحه يصلي في مرضه الذي مات فيه قائمًا وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى.

وأما الزكاة فإنه حرص على أدائها حرصاً شديداً وأما صدقة النفل: فإنها استغرقت جميع ما ملكه من الأموال فإنه ملك ما ملك ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية وجرمًا واحدًا ذهبًا ولم يخلف مُلكًا ولا دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئًا من أنواع الأملاك.

وأما صوم رمضان: فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه.. وشرع رحمه الله في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها وكان الطبيب يلومه على القضاء وهو لا يسمع ويقول: لا أعلم ما يكون فكأنه كان ملهمًا ما يراد به رحمه الله تعالى.

وأما الحج: فإنه كان لم يزل عازمًا وناويًا له فى ذلك العام الذي توفي فيه ولكن لم يتيسر له بسبب ضيق الوقت وخلو اليد.. فأخره إلى العام المقبل فقضى الله ما قضى وهذا شيء اشترك في العلم به العام والخاص رحمه الله.

وكان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم وكان رحمه الله خاشع القلب غزير الدمعة إذا سمع القرآن فيخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته.. وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث وإذا سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير فإنه كان ممن يحضر

عنده وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده وخاصة المختصين به.

وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الدين وكان مبغضًا للفلاسفة ومن يعاند الشريعة وإذا سمع عن معاند ملحد في مملكته كان يأمر بقتله وكان قدس الله روحه حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الإنابة إليه وكان إذا سمع أن العدو قد دهم المسلمين فكان يُرى ساهرًا ساجدًا لله داعيًا في سجوده بهذا الدعاء: «إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك أنت حسبي ونعم الوكيل». ويقول القاضي بهاء الدين: ورأيته ساجدًا ودموعه تتقاطرعلى شيبة ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول ولم ينفض ذلك اليوم إلا ويأتيه أخبار النصر على الأعداء.

لقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه ومشاعره وسائر جوانحه استيلاء عظيمًا وكان أبدًا يقصد بوقعاته الجمع حريصا على أوقات صلاة الجمعة تبركًا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب إلى الإجابة). اهـ بتصرف.

2 - عدله ورحمته:

العدل والرحمة سمتان كانتا تميزان شخصية صلاح الدين الأيوبي في كل تصرفاته وفي كل أحواله يقول القاضي بهاء الدين:

(وكان رحمه الله على جانب كبير من العدل والرحمة والرأفة ونصرة الضعيف على القوي) وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرم وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفرًا وحضرًا.. فما استغاث به أحد إلا وقف وسمع قضيته واعتنى بقصته).

ومما يدل على عدله أنه كان يقف بجانب خصمه أمام القضاء دون أن يرى في ذلك حرجًا أو غضاضة لأن الحق في نظره أحق أن يتبع وقد حدث أن ادعى تاجر يدعى (عمر الخلاطي) على صلاح الدين أنه أخذ منه أحد مماليكه ويدعى (سنقر) واستولى على ما كان لهذا المملوك من ثروة طائلة بدون وجه حق وعندما تقدم التاجر المدعى بظلامته إلى القاضي ابن شداد أظهر صلاح الدين حلمًا كبيرًا ورضى أن يقف فوقف الخصم من صاحب الدعوى وأحضر كل من الطرفين شهود لديه من أدلة يثبت بها رأيه حتى اتضح في النهاية – عند القاضي – كذب الرجل وادعاءه الباطل على صلاح الدين ومع كل هذا رفض صلاح الدين أن يترك المدعى يخرج من عنده خائبًا فأمر بالعفو عنه ومبلغ من المال ليدلك على كرمه في موضع المؤاخذة مع القدرة.

ومما يدل على عدله وسهره على مصالح الرعية إزالته بعض الضرائب تخفيفًا عن الناس ورفعًا للظلم من كواهلهم.

وقد ذكر ابن جبير من مناقب صلاح الدين وآثاره التي أبقاها ذكرًا جميلاً للدين والدنيا (أنه أزال كثيرًا من المكوس والضرائب التي كانت مفروضة على الناس على كل ما يُباع ويُشترى مما دق أو جل حتى كان يؤدي على شرب ماء النيل المكس) . فألقى صلاح الدين هذا كله.

وقد كانت هناك ضريبة قدرها سبعة دنانير ونصف الدينار تفرض على كل حاج في طريقه إلى الحجاز لتعمير مكة والمدينة ومساعدة الناس هناك وقد اشتط الفاطميون في جمع هذه الضرائب ومن يعجز عن دفعها يعذب عذابًا أليمًا ولكن صلاح الدين ألغى ذلك واستعاض عن ذلك معونة مالية تعادل قيمة ما يُؤخذ من الحجاج تدفع كل عام لأهل الحجاز.

3 - **شجاعته وصبره:**

الشجاع الصابر سمتان قلما تجد توافرهما في قائد وهما من أشهر سمات شخصية صلاح الدين الأيوبي أما شجاعته رحمه الله، فكانت مضرب المثل وقد شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء ولم يكن

هذا البطل كأولئك الملوك والقادة الذين يتربعون على عرش الزعامة وليس لهم عمل سوى أن يصدروا الأوامر إلى أتباعهم ويقدموهم إلى ساحات الوغى فإن أصابوا نصرًا فالذكر لهم وإن كانت الهزيمة والبلاء فهم في مراكز قيادتهم آمنون ولم يكن صلاح الدين من ذلك الصنف من الملوك والقادة وإنما كان إذا أراد منازلة تقدم الصفوف وخرج مع الجيش ليصحبه في ساحة القتال بل شاركهم مخاطر الحرب وثبت معهم في أحلك الظروف وأشد الأزمات..

ومن الأمثلة على هذه الشجاعة الفائقة التي تحلى بها هذا البطل أنه بعد أن استولى على (حصن كوكب) سنة 584هـ سمح للعسكر المصري بالانصراف للراحة وكان ذلك العسكر بقيادة أخيه (الملك العادل) فقرر صلاح الدين أن يودعهم حتى (عسقلان) ثم يتفقد البلاد الساحلية في (عكا) ولم يوافق المستشارون من صلاح الدين على تلك اللحظة لأنه بعد أن يودع العسكر المصري في عسقلان سيبقى هو في عدد قليل من الجند فكيف يأمن على نفسه أن يتنقل من مدينة إلى أخرى من مدن الساحل ليتفقدها وهو دون جيش يحميه لاسيما أن جموع الصليبيين كانت كبيرة في مدينة (صور) لذلك أشار مرافقوا صلاح الدين ومنهم القاضي ابن شداد اشاروا عليه ألا يفعل واعتبروا عمله «مخاطرة عظيمة» ولكن أصر على رأيه ومضى في طريقه إلى

(عكا) بحذاء الساحل بعد أن صرف العسكر المصري دون أن يخاف عدوًا أو يخشى خطرًا وكان الفصل شتاء والبرد قارصًا والبحر هائجًا «فنظر صلاح الدين إلى أمواج البحر الهادرة ثم التفت إلى القاضي ابن شداد وقال: «أما أحكي لك شيئًا في نفسي؟ إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد ووصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره وأتبعتهم (أي الصليبيين) فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت!!).

وكان رحمه الله رابط الجأش ثابت العزيمة لا تخور قواه إذا أحاطت به الشدائد أو نزلت في ساحته الأحداث.. ومعه ذلك ما يرويه القاضي ابن شداد: (إنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا أنه وصل في البحر في ليلة واحدة أكثر من سبعين مركبًا صليبيًا وهو يعدهم مركبًا بعد آخر من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ومع ذلك فإن صلاح الدين كان لا يزداد إلا قوة نفس) يقول ابن شداد: (ما رأيته استكثر العدو أصلاً ولا استعظم أمرهم قط..) وقد حدث في بعض المواقع التي دارت بين صلاح الدين والصليبيين في مرج عكا أن هزم المسلمون وسقط علمهم على الأرض ومع ذلك (ظل صلاح الدين ثابت القدم في نفر يسير حتى انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى

انتصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم) وقد حدث في ليلة ممطرة عاصفة وصلاح الدين يرابط على مرج عكا أن سقطت خيمته وكان من الممكن أن تقتله ومع ذلك لم يزده ذلك إلا رغبة في الجهاد واصرارًا على القتال، وهذا مما يدل دلالة واضحة على أن هذا البطل كان يحتفظ بروح معنوية عالية وثقة بالله قوية وشجاعة في الحروب فائقة..

ونترك الكلام للقاضي بهاء الدين ليعبر لنا عما لمسه في صلاح الدين من حب للجهاد وتضحيته في سبيل الله يقول القاضي بهاء الدين: «لقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيمًا بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته ولا كان له أهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه لقد هجرت محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة».

وقد حدث أكثر من مرة أن قاد صلاح الدين جيوشه وهو مريض وأخذ ينظم جيوشه ويقاتل أعداءه وهو يعاني آلام المرض وابن شداد يتعجب من ذلك فيرد عليه صلاح الدين قائلاً: «إذا ركبت يزول عني الألم».

ومما يدل على صبره واحتسابه هذا الحادث الذي رواه ابن شداد

في كتابه هذا الحادث يتلخص في أن صلاح الدين كان له ابن اسمه (إسماعيل) فجاءه خبر وفاته فتجلد وصبر واحتسب ولم يحدث أحدًا ولم يظهر عليه شيء من الألم سوى دمعة ذرفت من عينيه يقول ابن شداد: «فانظروا إلى هذا الصبر والاحتساب وإلى أي غاية بلغ هذا الرجل اللهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب ووفقته له فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين».

4 - **حلمه وعفوه:**

صلاح الدين الأيوبي الرجل الحليم الذي يعفو عند المقدرة إنها أبرز سماته الشخصية ومن الأخلاق الكريمة التي تحلى بها هذا البطل خلق الحلم والعفو فكثيرًا ما يقابل الإساءة بالإحسان والغلظة بالحلم.

من ذلك ما يرويه ابن شداد من أن الناس كانوا يتزاحمون على صلاح الدين لعرض شكاويهم وربما داسوا على أطراف ثيابه والفرش الذي يجلس عليه بأقدامهم وهو لا يتأثر لذلك وينظر في شكاويهم ويمضي في قضاء حاجاتهم في أناة وحلم وقد كان يحدث أن بعض المستغيثين والمتظلمين يغلظون له القول ويستعلون عليه بالكلام فيتقبل قولهم بالبشر والقبول.

وفي ذات يوم مر عليه القاضي ابن شداد وهو ممط بغلته وكان

اليوم مطيرًا كثير الوحل فنضحت البغلة عليه من الطين أتلفت جميع ما كان يرتديه من ملابس ومع ذلك رفض أن يسمح لابن شداد بالانزواء خجلاً وابتسم وقربه منه حتى يزيل ما في نفسه من خجل وألم.

وثمة قصة يرويها ابن شداد وهو شاهد عيان فيها ليستشهد بها على حلم صلاح الدين وعفوه فيذكر أنه حدث أثناء الصراع بين صلاح الدين «وريتشارد» حول يافا أن عصى بعض عساكر صلاح الدين الأوامر الصادرة منه إليهم وأجابوه «بكلام فيه خشونة» فتركهم صلاح الدين وانصرف كالمغضب حتى خيل لمن رآه أنه قتل جماعة من العساكر في ذلك لما آتوه من أعمال وأقوال ولم يزل صلاح الدين سائرًا حتى وصل إلى قيادته وحوله الأمراء يرعدون خيفة وكل منهم يعتقد أن مسخوط عليه حتى ابن شداد مع عظم مكانته عند صلاح الدين يقول ابن شداد: « لم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة منه حتى استدعاني» فلما دخل ابن شداد على صلاح الدين طلب منه أن يجمع الأمراء ليشاركوه في أكل كمية من الفاكهة كانت قد وصلته من دمشق فحضر الأمراء وهم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور وانصرفوا على عزم الرحيل للقتال كأن لم يحدث شيء أصلاً ومما كتب المؤرخون في الحلم أن

رجلاً تقدم إليه وهو تعب ضجر بإحدى الشكاوي فطلب منه صلاح الدين أن ينتظر قليلاً ويؤخر شكواه غير أن الرجل لم يشأ الانتظار وطفق يقرأ شكواه على مسمع من صلاح الدين وأدنى الشكوى من بصر فقال له صلاح الدين: إن الدواة غير موجودة هنا حتى أوقع لك هذه الشكوى فما كان من الرجل إلا أن أسرع بإحضار الدواة وقربها من صلاح الدين وطلب منه التوقيع فلم تثر ثائرته ولم يدركه الغضب بل تمسك بأهداب الحلم والعفو وحمل قلمه ووقع على شكوى الرجل.

ولم يكن حلمه رحمه الله قاصرًا على أتباعه ورعيته وجنده وإنما تعدى ذلك إلى الأعداء الذين كانوا يحاربون ويحاربهم وقد أفضنا في سرد الأمثلة عن هذا العفو وتلك السماحة .. في (الفصل السابع) من هذا الكتاب حين تطرقنا لبحث (سياسة صلاح الدين في معاملته مع الصليبيين) فارجع إليه تجد ما يروي الظمأ ويشفي العليل.

5 - **مروءته وسماحته:**

صلاح الدين الأيوبي صاحب المروءة والسماحة إنها الحقيقة التي لا ريب فيها بلا شك أما عن المروءة والسماحة التي تحلى بهما صلاح الدين فقد أجمع المؤرخون قديمًا وحديثًا أن المعاملة الحسنة التي عامل بها صلاح الدين أعداءه لم يسبق بها أحد في تاريخ

الحروب والفتوحات وإليكم شهادة المؤرخين الغربيين في سماحة هذا البطل ومروءته النادرة في التاريخ.

يروي (الأمير علي) عن (مل) المؤرخ الإنجليزي قوله: «ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى إنطاكية المسيحية فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم فطردهم فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب».

ويقول (الأمير علي) أيضًا: «لقد وصف (ميشود) حال أولئك الذين طردوا من القدس وما لاقوه من إخوانهم المسيحيين من عدم احترام الإنسانية فقد تضور عدد منهم جوعًا في سوريا وهم على أشد ما يكونون من البؤس وقد أغلقت طرابلس أبوابها في وجوههم – ثم قال ميشود: وقد اضطرت إحدى السيدات أن تلقي بولدها في اليم وهي تلعن أولئك المسيحيين الذين أبوا أن يضيفوها أو يؤووها» «وقيل للسلطان صلاح الدين والبطرك خارج بأمواله وذخائره وكانت كثيرة جدًا لم يصرفها في غداء الفقراء والمساكين بعد أن وصف ستانلي البطرك بأنه كان من غير ضمير ولا وجدان وقيل للسلطان: لَمّ لم تصادر هذا فيما يحمل وتستعمله فيما تقوي به أمر المسلمين؟ فقال لهم السلطان صلاح الدين الأيوبى: لا آخذ منه غير العشرة الدنانير ولا أغدر به» وفي ذلك يقول (ستانلي لين بول): «قد وصل الأمر إلى أن سلطانًا مسلمًا يلقي

على راهب مسيحي درسًا في معنى البر والإحسان».

ويروي القاضي ابن شداد أنه كان راكبًا ذات يوم في صحبة صلاح الدين على مقربة من خطوط الصليبيين فإذا بأحد الجنود المسلمين يحضر امرأة صليبية تبكي في حرقة وتدق على صدرها دقًا متواصلاً فلما سأل صلاح الدين عن قضيتها عرف أن ابنتها الصغيرة فقدت منها وعندئذ رق ودمعت عينيه وحركته المروءة وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة مَنْ اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها» وهكذا لم تكن تمضي ساعة حتى أحضروا الطفلة الصغيرة فجرت الأم نحو طفلتها لرؤيتها وأخذت تعفر وجهها في التراب والناس يبكون على ما نالها وهي ترفع طرفها إلى السماء ولا تعلم ما تقول فسلمت ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى معسكرها».

ويروي القاضي ابن شداد هذه القصة الرائعة التي تنبئ عن تسامحه الكبير ومروءته النادرة يقول ابن شداد: «لما مرض الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد أكبر خصوم صلاح الدين بعث إليه صلاح الدين بطبيبه أمر وأرسل إليه الفواكه والثلج» وكان الصليبيون يعجبون من هذا التسامح الكريم الصادر عن أعدائهم المسلمين نحوهم ومن هذه الرحمة التي يبديها المسلمون نحو الصليبيين الذين مسهم الجوع وأقعدهم العجز وأصابهم البلاء المجمع عليه

لدى المؤرخين أن صلاح الدين لم يستغل هذا العجز لإكراههم على الدخول في الإسلام ويقول (آرنولد) في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»: «لقد كانت هذه المعاملة الرحيمة سببًا في التجاء الكثير من الصليبيين إلى صلاح الدين الايوبى والدخول في الإسلام».

وإذا أردنا أن نوازن بين التعصب الصليبي الحاقد على الإسلام والمسلمين وبين التسامح الإسلامي الصافي على المسيحية والمسيحيين وجدنا الفرق بينهما واضحًا والبون شاسعًا.. وذلك لأن الصليبيين لما هاجموا العالم الإسلامي كانوا مشبعين بروح التعصب والحقد الأسود الذى لا يصدهم عن التنكيل بالمخالفين لهم في الدين أي رادع من رحمة أو ضمير أو إنسانية.. وكانوا يعتدون على أي شخص تمكنوا منه كبيرًا أو صغيرًا رجلاً كان أو امرأة سواء كانوا مقاتلين أو مسالمين.

وقد بدأ تعصب الصليبيين المقيت وقساوتهم البالغة في مذبحة المسجد الأقصى التي قتلوا فيها ما يزيد على السبعين ألفًا ممن التجأ إليهم من العجزة والأطفال والنساء من المسلمين المسالمين.. وبعكس ذلك كان موقف صلاح الدين عندما استرجع بيت المقدس فقد منع الاعتداء على كل صليبي بعد أن استسلمت الحامية الصليبية ومنحها الأمان وخرج جميع الصليبيين من بيت المقدس محروسين بالجند الإسلامي حتى وصلوا آمنين إلى مدينة صور.

المستشرقون ونقد صلاح الدين الأيوبي

كان للمستشرقِين نقد لتصرفات صلاح الأيوبي وقد قاموا بتغليف هذه الانتقادات بورق سلوفان وقاموا بطلائه بالعسل الأسود كعادتهم دائمًا.

النقد الذي وجه إلى صلاح الدين:

يثير بعض المؤرخين المعاصرين النقد الشديد على سياسة صلاح الدين في معاملته الرحيمة للصليبيين وفي تسامحه المفرط لأعداء الإسلام والمسلمين.

وهذا النقد يتلخص في الأمور التالية:

أولاً – كان على صلاح الدين أن يعامل الصليبيين بالمثل كما قتلوا أسرانا ونكلوا بهم كان عليه أن يقتل أسراهم ويستأصل شأنتهم من الأرض تحقيقًا لمبدأ المعاملة بالمثل ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ (الشورى: 40) ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ (البقرة: 194).

ثانيًا – السماح للأسرى أن يجتمعوا ويتمركزوا في مدينة (صور) وهذا مما شجعهم أن يشنوا على صلاح الدين حربًا صليبية ثالثة اعتمادًا على تجمعهم وعلى الإمدادات التي ترد إليهم من أوروبا وكان من نتيجتها تسليم (عكا) للصليبيين.

ثالثًا – أوقعت هذه الاضطرابات التي تلت معركة حطين البلاد الإسلامية في بلبلة كبيرة وجرت على صلاح الدين متاعب كثيرة وأوقعت الدولة الإسلامية في خسائر فادحة وحالت دون المد الإسلامي في الشرق والغرب.

هذه أهم الانتقادات التي وجهها المستشرقون إلى البطل الفاتح صلاح الدين ولكن الكثير من المؤرخين يدافعون عن صلاح الدين ويبررون عمله ويردون على كل نقد وجه إليه لأن تسامحه الذي أتصف به ومعاملته الرحيمة التي تميز بها كانت مبنية على أسس إسلامية وقواعد شرعية..

فما دام الإسلام خير ولاة الأمور بين المن والفداء والقتل والاسترقاق في معاملة الأسرى فلصلاح الدين أن يختار ما شاء بما يحقق المصلحة للإسلام والمسلمين تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد: 4).



علمًا بأن صلاح الدين أمر بفريق من الأسرى يبلغ عدده 200 فقتلوا لأنهم كانوا رؤوس الشر ومثيري الفتن وكانوا دائمًا يعملون على الإيقاع بالمسلمين بل كانوا لا يوفون بعهد ولا ميثاق وأنهم هم الذين كانت تنقاد إليهم العامة وأنهم الفئة التي كانت تعادي المسلمين وتبالغ في إيذائهم والتنكيل بهم أشد المبالغة من طريق التعصب الديني..).

وصلاح الدين بعد أن انتصر على الصليبيين في حطين أحضر الأسير (أرناط) صاحب الكرك وضرب عنقه بيده تنفيذًا لوعده لوعده وبرًا بقسمه ولسوء معاملته للمسلمين وتطاوله على مكان النبوة.

ومن هذه الشواهد التي سقناها يتبين لنا أثر هذا البطل كان حازمًا في موطن الحزم ومتسامحًا في موطن التسامح وما أحسن ما قاله أحد الشعراء:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا   نصر كموضع السيف في موضع الندى

أما أن صلاح الدين قد سمح للأسرى في أن يقيموا في (صور) ويتمركزوا فيها فالحقيقة أن صلاح الدين لم يأذن بهذا إلا بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق أن يحافظوا على العهد وألا يرجعوا إلى الحرب وألا يحدثوا ما يخل بالسلام ولكن القوم نقضوا عهودهم وأخلوا

بوعودهم وأخفروا كل ذمة أعطوها للسلطان صلاح الدين وربما كان بحسبان هذا البطل المتسامح أن أولئك الصليبيين سيقدرون هذا العرفان ويحفظون هذا الجميل ويعيشون مع المسلمين بكل استقرار وسلام ولكن كما يقول الشاعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وإن كان من الأفضل والأحوط في حق صلاح الدين أن يوزع هؤلاء الأسرى على البلاد الإسلامية هنا وهناك حتى يتبدد شملهم ويتفرق جمعهم وحتى يكونوا في الوقت نفسه تحت نظر المسلمين ورقابتهم المستمرة.

وأما أن تسامح صلاح الدين قد أوقع البلاد في اضطرابات وجر عليها خسائر ومتاعب.. فللحقيقة نقول: إن صلاح الدين بنى تسامحه كما ذكرنا على أسس إسلامية وكان مصيبًا فيما فعل وهل عنده علم الغيب في أن أوروبا ستشن هجومًا كبيرًا بمعاونة أولئك المتمركزين في (صور) على بيت المقدس في حرب صليبية ثالثة؟ ولو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير وأخذ بالأهبة الكاملة وصدق من قال:

ما مضى فات والمؤهل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

وختامًا فنحن لا ندعي العصمة له ما دام من البشر وكما يقول

الإمام مالك: «ما منا إلا من رد ورد عليه إلا صاحب هذا القبر» وأشار إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم والمجتهد إذا أخطأ له أجر واحد وإذا أصاب له أجران وصلاح الدين مأجور على كل الأحوال سواء أخطأ أو أصاب رحمه الله وأجزل مثوبته.

مزايا خاصة لصلاح الدين الأيوبي

كان لصلاح الدين الأيوبى عدة مزايا خاصة نوجزها فيما يلى:

1 - حبه للشعر والأدب:

كان صلاح الدين رحمه الله رجلاً متكامل الشخصية فكما أنه يحب الجهاد ويكرس أكثر وقته له فإنه كذلك لم ينس نصيبه من الدنيا بالقدر الذي لا يقعده عن واجب القتال لإعلاء كلمة الله من ذلك ما يذكره ابن شداد عن صلاح الدين أنه كان «حسن العشرة لطيف الأخلاق طيف الفكاهة حافظًا لأنساب العرب ووقعائهم عارفًا بسيرهم وأحوالهم حافظًا لأنساب خيلهم عالمًا عجائب الدنيا ونوادرها..»

ومن هذه الجوانب التي تنبئ عن شخصيته الفذة وتكشف عن عقله الكبير استحسانه للأشعار الجيدة وترديدها في مجالسه فقد ذكر ابن خلكان في تاريخه: إن صلاح الدين كان يستحسن الأشعار الجيدة ويتردد إليه الشعراء لينشدوه إنتاجهم وإنه كثيرًا ما كان يردد قول الشاعر:

وزارني طيف من أهوى على حذرٍ   من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولي به فرحًا   وكان يهتك ستر الحب بي شغفًا
ثم انتبهت وآمالي تخيل لي   نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفًا

وذكر صاحب وفيات الأعيان أنه كان يعجبه قول ابن المنجم في خضاب الشيب وهو:

وما خضب الناس البياض لقيمه   وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكن مات الشباب فسودت   على الرسم من حزن عليه منازله

وذكر العماد الكاتب أن السلطان صلاح الدين في أول ملكه كتب إلى بعض أصحابه هذين البيتين:

أيها الغائبون عنا وإن كن   تم لقلبي بذكركم جيرانا
إنما مذ فقدتكم لا أراكم   بعيون الضمير عندي عيانًا

وذكر صاحب الروضتين: «إن صلاح الدين كان مغرمًا بديوان أسامة بن منقذ وكان له محفوظ كبير من الشعر يردده في مناسباته وكان كتاب الحماسة من حفظه قالوا: لما مات (توران شاه) أخو صلاح الدين ووصل الخبر بذلك إلى السلطان حزن عليه حزنًا شديدًا وجعل يكثر إنشاء أبيات المراثي وكأنه يعبر بهذا الشعر المحفوظ عن أحزانه».

وكان يضمن رسائله الشعر قال العماد: «وكثرت كتب صلاح الدين

إلى أصدقائه مبشرة بطيب أبنائه فمنها كتاب ضمن هذا البيت»:

ما كنت بالمنظور أمنع منكم　　　ولقد رضيت اليوم بالمسموع

ويذكر العماد الكاتب «أن صلاح الدين كان مغرمًا بالأدب ومحبًا لأهله كما كان يعقد المجالس للاستماع إلى ما يقوله الشعراء كهذا المجلس الذي عقده بعد أن فتح بيت المقدس واستمع فيه إلى ما قاله الشعراء في هذا الفتح المبين».

وكان له رحمه الله ذوق أدبي ينقد به ما يعرض عليه من الشعر كتب نشو الدولة أحمد بن نفادة أبياتًا يدعو بها العماد إلى دمشق «وقد دخل أوان المشمش المعهود وهو موسم دمشق المشهود» قال فى أولها :

دعا الناس للذات مشمش جلق　　　فقد أسرعوا من كل غرب ومشرق

قال العماد فعرضت أبياته مع السلطان قال السلطان للعماد : فما قلت في جواب هذه الأبيات فأنشدته ما قلت:

هلموا نسابق نحو مشمش جلق　　　وثم كما نهوى على الأكل تلتقي

بدت بين أوراق الغصون كأنها　　　كرات تضار في لجين مطرق

قال العماد : فلما أنشدت السلطان هذا البيت قال: تشبيه الورق باللجين غير موفق فإن الورق أخضر واللجين أبيض فقلت بعد تعديل:

بدت بين أوراق الغصون كأنها (كـرات نـضـار بـالـزود مـحـدق)

فغير الشاعر المشبه به ليطابق المشبه لأن نقد السلطان كان في موضعه.

2 - زهده وكرمه:

هناك مزايا خاصة بالقائد صلاح الدين الأيوبي أشهرها الزهد والكرم، كان رحمه الله له من العزوف عن الدنيا ومباهجها وزينتها وطيباتها الكثير بنى له أتباعه مرة منزلاً أنيقًا في دمشق فلم يكترث به ولم ينظر إليه طويلاً بل قال: «ما كنا لنجلس في هذا المكان إلى الأبد فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه».

لم تفتنه أموال ملكه الواسع ولم تغرِه أبهة الملك وعظمة السلطة فمن أقواله: «إن المال والتراب سيان عندي» ومما يدل على زهده في الدنيا وعزوفه عن مباهج الحياة: أنه حين توفى لم يجد الناس لديه مالاً ولم يخلف ضيعة ولا قصرًا حتى أن قاضيه بهاء الدين المعروف بابن شداد لما تكلم عن عقيدته وتعبده ذكر من جملة ما ذكر:

وأما صدقة النقل: بأنها استغرقت جميع ما ملكه من الأموال فإنه ملك ما ملك ولم يخلف خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين

درهمًا ناصرية وجرامًا واحدًا ذهبًا ولم يخلف مُلكًا ولا دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا ولا قرية ولا زرعة ولا شيئًا من أنواع الأملاك.. فهل رأيتم في تاريخ السلاطين والزعماء عظيمًا زاهدًا كمثل هذا السلطان العظيم؟ إنه الرجل الفذ في التاريخ إنه القائد الذي باع دنياه بآخرته واستعاض عن العاجلة بالآجلة وما عند الله خير مما يجمعون انه صلاح الدين الأيوبى.

أما كرمه وجوده رحمه الله فكان في الذروة (فكان لا يرد سائلاً ولا يصد نائلاً ولا يخجل قائلاً ولا يخيب آملاً) يقول ابن شداد: «إنه اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ولم يكن في الخزانة ما يعطي الوفود فلم أزل أخاطبه في معناهم حتى باع أشياء من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منها درهم واحد.

ويقول ابن شداد: «كان رحمه الله يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئًا من المال خوف أن يفاجئهم بهم من الأمور» ويستطرد قائلاً: «إنه سمعه قال في معرض حديث جرى: يمكن أن يكون في الناس مَنْ ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب فكأنه أراد بذلك نفسه رحمه الله..».

وكان رحمه الله يكرم كل من يفد إليه من أرباب العلم وذوي

الأقدار.. ويوصي إلى رجاله ألا يغفلوا عمن يجتاز بالخيام من رجال العلم والتصرف وقد مر به رجل مرة يجمع بين العلم والتصوف وانصرف بعد لقاء الناصر صلاح الدين ومضى على ذلك ليلٍ وسأل السلطان عنه فعلم أنه مسافر فظهر على وجهه أمارات العتاب وقال: كيف يتركنا هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا؟ وشدد النكير على ذلك فكتب إليه كاتبه كتابًا عنه وكان كاتبه على معرفة به فطلب منه الرجوع لمقابلة السلطان فحضر الرجل واجتمع بصلاح الدين الذي رحب به وانبسط معه في الحديث وأبقاه في ضيافته أيامًا ثم خلع عليه خلعة حسنة وأعطاه دابة يركبها وثيابًا كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وجيرانه وبعض المال فانصرف الرجل عنه وهو في غاية السرور والانبساط.

وكان عندما يعلم بورود أموال إليه يجود بأضعافها على المحتاجين والمجاهدين قبل أن تصل إليه وما عقر في سبيل الله فرس أو جرح إلا وعرض صاحبه مثله وزاده من فضله ولم يكن له فرس يركبه إلا وقد وهبه أو وعد أن يهبه إلى أحد رجاله وكان عدد ما وهب من الأفراس في عكا فقط يزيد على عشرة آلاف فرس . وكان لا يرتدي إلا ما يجمل في عينيه من ملابس الكتان والقطن والصوف حتى إذا وجد محتاجًا تبرع بها إليه ولعل الدافع إلى هذا البذل والعطاء

بدون حساب أنه كان يعتبر نفسه جنديًا من جنود الإسلام مدعوًا إلى معارك يخوضها مع الأعداء فهو لا يدري هل يعود؟ وإذا كان لا يعلم هل يعود فلماذا تبقى هذه الأموال ولم توزع على أهل الاستحقاق؟ وهناك أمر آخر ذكرنا طرفًا منه في أول هذا البحث نحن بصدده وهو أن السلطان البطل صلاح الدين الأيوبى لم يكن من هؤلاء الذين تستهويهم زينة الدنيا ومباهجها ولم يكن يقعد في قصره ثم ينصب لقواده الرايات ويرسل البعوث ولم يكن يصدر الأوامر وهو غارق في عظمة الملك وأبهة السلطان وإنما كان فارسًا مقدامًا وبطلاً شجاعًا فقد قضى أكثر عمره على متن جواده وإذا أراد الراحة تمدد فوق الرمال واستظل تحت الخيام.. لا ترقد عينه ولا تستريح نفسه.. حتى يرى المسلمون في العزة وعلى سلم الأمجاد والوحدة والقوة يصعدون.. فهل يلام هذا البطل بما ينفق من أموال وما يتصف به من بذل وسخاء؟.

3 - **حركته واهتمامه بأمر الجهاد:**

أما حبه للجهاد وشغفه به واهتمامه له: فكان على جانب كبير من الحب والشغف والاهتمام بالجهاد فكان لا يرقد له جنب ولا يستريح له بال ولا يطيب له طعام.. حتى يرى بلاد الإسلام قد تحررت من

الصليبية الحاقدة وانتصرت على كل مستبد وطاغية جبار.. ولكي تعرف جليًا مبلغ اهتمامه وقدر مسئوليته في أمر الجهاد والتحرير فلنستمع إلى ما يقوله مرافقوه وما كتب عنه الذين شاهدوه.. يقول ابن شداد: «كان رحمه الله عنده أمر القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال» وقال: «وهو كالوالدة الثكلى يجول بنفسه من طلب إلى طلب ويحث الناس على الجهاد ويطوف بين الطلاب بنفسه وينادي: يا للإسلام وعيناه تذرفان بالدموع وكلما نظر إلى عكا وحل بها من البلاء وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ولم يطعم في ذلك اليوم طعامًا البتة وإنما شرب أقداح دواء كان يشير بها الطبيب».

ومما قاله كذلك: «والسلطان يوالي هذه الأمور بنفسه ويكافحها بذاته ولا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئًا يسيرًا لفرط اهتمامه».

الله أكبر هكذا فليكن الاهتمام بشأن الجهاد.. الله أكبر هكذا فلتكن التضحية في سبيل الله.. الله أكبر.. هكذا فلتكن الانطلاقة لأجل التحرير والوقوف لقضية الإسلام لو لم يكن لصلاح الدين سوى

هذه المواقف لكفاه فخرًا وشرفًا وخلودًا.. ويستطرد ابن شداد في وصف اهتمامه بأمر الجهاد قائلاً: «ولقد كان صلاح الدين الأيوبى رحمه الله حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيمًا بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى مَنْ يذكره ويحث عليه ولقد هجر في محبته الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها رياح ميمنة وميسرة ولقد وقعت عليه في ليلة ريحية فى مرج عكا فلو لم يكن في البوح أى خارجها لقتلته ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتمامًا..».

ومما يدل على جهاده المتواصل وحركته الدائمة واندفاعه الكامل لإعلاء كلمة الله أنه قال مرة للقاضي ابن شداد وهو يركب البحر: «أما أحكي لك شيئًا عن نفسي؟ أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره وأتبعتهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت.. ثم قلت — أي ابن شداد: ما هذه إلا نية جميلة ولكن المولى يسير في البحر العساكر وهو سور الإسلام ومنعته فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه فقال: أنا أستفتيك ما أشرف الميتتين؟ فقلت: الموت

في سبيل الله فقال: غاية ما في الباب أن أموت بأشرف الميتتين فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجرأها رحمة الله عليه اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصر: دينك وجاهد رجاء رحمتك فارحم».

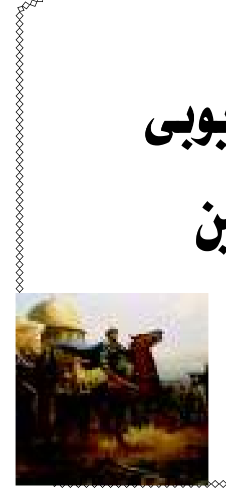
تلكم أهم الصفات النبيلة والخصال الكريمة التي تحلى بها البطل الخالد صلاح الدين الأيوبى وما أحوج قادتنا اليوم إلى مثل هذه الصفات وإلى المزيد من هذه الخصال عسى أن ينهضوا بأمتهم إلى المستوى اللائق من المسئولية في بناء دولة الإسلام وعسى أن يصلوا إلى النصر في معاركنا القادمة مع إسرائيل وعسى أن يستعيدوا ما ذوى لهذه الأمة من عزوفا اندثر لها من مجد وليس ذلك على الله بعزيز.

وما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى بطل كصلاح الدين في عبادته وتقواه وفي عدله ورحمته وفي شجاعته وصبره وفي حلمه وعفوه وفي مروءته وسماحته وفي زهده وكرمه وفي حركته وجهاده..

ويوم تكتمل هذه الصفات في حاكم مسئول أو قائد بطل.. فليرتقب المسلمون النصر الأكبر والعزة المطلوبة والدولة الإسلامية العتيدة.

الفصل الثالث

صلاح الدين الأيوبى ومعركة حطين





أسباب معركة حطين

كانت هناك أسباب مباشرة لمعركة حطين لعل أكثرها بروزًا هو خوف الصليبيين من قوة جيش صلاح الدين الأيوبي لأنه بعد أن استطاع توحيد مصر والشام وغيرها من البلدان كلها تحت أمرته أصبح قويًا وأصبح قادرًا على مواجهة الصليبيين الفرنجة لذا كان تحفز هؤلاء الفرنجة لقوات صلاح الدين الأيوبي واستفزازهم بل التعدي على القوافل الإسلامية ويمكن إيجاز تلك الأسباب فيما يلي:

أولاً: الأسباب المباشرة لمعركة حطين بين صلاح الدين الأيوبي والفرنجة الصليبيين:

لقد استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يُكَوِنَّ مملكة عظيمة تشمل شمال العراق (كردستان) والشام ومصر وبرقة وقيل إنه يعد العدة لأجل أن يغزو الفرنج ويستخلص من أيديهم بيت المقدس والبلاد التي كانت خاضعة لحكمهم وسلطانهم.. وكان ينتظر الفرصة المواتية للانقضاض عليهم وتلقينهم درسًا لا ينسونه أبدًا.. للفظائع التي ارتكبوها والجرائم التي أحدثوها في بيت المقدس ومسجده الأقصى.

ولقد جاءت الفرصة للانتقام عندما اعتدى (أرنـاط) أمير (الكرك) على قافلة تجارية لصلاح الدين سنة 582هـ وإمارة الكرك هذه واقعة بين البلاد الشامية والبلاد المصرية وكان بين صلاح الدين وبين هذه الإمارة هدنة ومسالمة وكان من بنود الهدنة السماح للقوافل الإسلامية بالانتقال من مصر إلى الشام أو العكس في سلامة وأمن.

وكان من نتيجة اعتداء (أرناط) على القافلة الإسلامية مصادرة الأموال وأسر الرجال ويروي المؤرخون أن قافلة المسلمين لما وقعت في قبضة الصليبيين وصاحب الكرك استهان بالدين الإسلامي وبالنبي عليه الصلاة والسلام وقال للأسرى: «إن كنتم تعتقدون في محمد فادعوه الآن يفك أسركم ويخلصكم من شر ما وقعتم فيه» فنمى هذا إلى السلطان صلاح الدين الأيوبى فغضب غضبًا شديدًا وحلف لئن أسره ليقتلنه بيده وحقا بر السلطان في قسمه وكان هذا الاعتداء من قبل الإفرنج الشرارة الأولى لاندلاع الحروب التي شنها صلاح الدين ضد الصليبيين والتي أذاقهم فيها كؤوس العذاب والردى بل ذاع اسمه في أوروبا وتناقلته ألسنة الأمهات ليخوفن أبنائهن باسم صلاح الدين مع العلم أن هذا البطل عامل الأسرى والنساء والأطفال معاملة حسنة مما يعد مفخرة للتاريخ وقدوة للأجيال.

- معركة حطين رد فعل للاعتداء على المسلمين:

وبعد هذا الاعتداء الفاضح أخذ السلطان صلاح الدين الأيوبى يعد العدة ويجمع الجيوش ويهيئ كتائب المجاهدين ليوقع النكال الشديد بالإفرنج قاطبة ويسترد أرض الإسراء ومهبط النبوات ما وجد لذلك من سبيل.

كان هذا الوقت وقت عودة حجاج المسلمين فتأهب صاحب الكرك إلى اقتناصهم والاعتداء عليهم وهم راجعون واستعد صلاح الدين لحمايتهم بعد أن أعلن الجهاد في كل بلاده وعسكر في (قصر السلامة) بالقر من (بصرى) وظل فيها حتى مر الحجاج المسلمون بسلام آمنين مطمئنين ودعا الحجاج للسلطان صلاح الدين بالنصر والغلبة على قوم لا هم لهم إلا نكث العهود ونقض المواثيق فقد أعماهم التعصب والحقد وأغلظ قلوبهم الجهل والعداوة فأوقعتهم في شر ما يصنعون.

وبعد أن جمع صلاح الدين الجموع ونظم الجيوش عقد مجلس شورى للتشاور في منازلة العدو وتوقيت المعركة فاتفقوا على الخروج في 17 ربيع الآخر سنة 583هـ بعد صلاة الجمعة بين تكبير المسلمين وابتهالهم وتضرعهم بالدعاء.

خرج صلاح الدين من دمشق ولما وصل رأس الماء جعله مركزًا

لاجتماع الجيوش وبقي ولده (الملك الأفضل) برأس الماء وسار هو إلى بصرى وسار (مظفر الدين كوكبري) إلى عكا ومن بصرى توجه صلاح الدين إلى حصن (الكرك والشوبك) ثم عاد إلى (طبرية) ولم يأل جهدًا رحمه الله في استنفار المسلمين واستنهاض هممهم للجهاد المقدس في سبيل الله وكان إذا رآه مَنْ رآه لا يراه إلا مهتمًا مغتمًا تعلوه كآبة الحزن والأسى.. بل كان عزوفًا عن الطعام لا يتناول من الغذاء إلا الشيء اليسير ولما سئل عن سبب ذلك أجاب: كيف يطيب لي الفرح والطعام ولذة المقام وبيت المقدس بأيدي الصليبيين؟ قال صاحبه ومرافقه القاضي (بهاء الدين بن شداد) يصف حاله في حروبه الصليبية: «كان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال» وقال: «وهو كالوالدة الثكلى ويجول بفرسه من طلب إلى طلب ويحث الناس على الجهاد ويطوف بنفسه وينادي: يا للإسلام وعيناه تذرفان بالدموع وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ولم يطعم في ذلك طعامًا ألبتة وإنما شرب أقداح دواء كان يشير بها الطبيب ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئًا يسيرًا لفرط اهتمامه».

وأيقن الصليبيون باتساع الخطة التي دبرها صلاح الدين ضدهم

فاجتمعت كلمة رؤسائهم وحشدوا جموعهم وتوجهوا إلى (طبرية) وتقابل الفريقان في مكان اسمه (حطين) أصبح الصباح وانتشرت حرارة الشمس المحرقة فأعانت المسلمين على الفتك بهؤلاء العطاشى لاستيلائهم على مواقع المياه. وهجم البطل صلاح الدين على الفرنج هجومًا عنيفًا خرق فرسانهم عن حشاتهم وتقهقرت فلولهم إلى تلال حطين من شدة ما لاقوا من الهول والشدة والعطش الشديد وبعد معارك ضارية بين الطرفين انتصر فيها صلاح الدين انتصارًا حاسمًا وانهزم الصليبيون هزيمة منكرة لم يفلت منهم أحد وكانوا بين قتيل وأسير وبلغ عدد قتلاهم عشرة آلاف وفي تلك الأثناء سقط «أسقف عكا» قتيلاً ووقع من بين يديه (صليب الصلبوت) فاستولى عليه المسلمون وكان ذلك من أعظم المصائب عليهم وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك وهكذا ظل المسلمون يزحفون نحو قمة الجبل وأمامهم الصليبيون يتراجعون والقتل والأسر يعملان في فرسانهم حتى بقي ملك بيت المقدس وحوله 150 من الفرسان فتساقطوا على الأرض لا يستطيعون حراكًا من الإنهاك والعطش والخوف.. وأُسر ملك بيت المقدس (أرناط) موقد شرارة هذه الحرب وأقيمت للسلطان صلاح الدين خيمة أجتمع فيها بذوي الرأي من أتباعه ومستشاريه فسجد الجميع لله شكرًا على ما أنالهم من نصره ثم أمر بإحضار الملك



(جلي لوزجنان) وصاحب الكرك (أرناط) فأجلسهما بداخل خيمته وقد أخذ العطش من الملك كل مأخذ فطلب ماء فأحضر له ماء مثلوجًا فشربه إلا قليلاً ومن ثم ناوله صاحب الكرك فقال السلطان صلاح الدين الأيوبى حينئذ: «إنا لم نعطى هذا الماء حتى يكون آمنًا على نفسه» ثم قام وأنب صاحب الكرك على سوء صنعه مع قافلة المسلمين وتطاوله على مقام النبوة ثم ضرب عنقه بيده تنفيذًا لوعده وبرًا بيمينه وعند ذلك رعب الملك فطيب السلطان خاطره وهدأ من روعه وقال له: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فإنه تجاوز حده فجرى عليه ما جرى»..

انتهت معركة حطين وكان النصر فيها حاسمًا لصلاح الدين الدين الأيوبى فلقد هزم فيها الإفرنج الغاصبون هزيمة منكرة.. لقد خاض جيش الإسلام المعركة وهو أحسن ما يكون نظامًا وأقوى ما يكون عدة وأمهر ما يكون قيادة.. ولقد كان اختيار أرض المعركة موفقًا من الناحية العسكرية والحربية.. لذا كانت هذه الموقعة ضربة قاضية على فلول الإفرنج الصليبية.

وبعد الانتصار الكبير الذي أحرزه صلاح الدين في حطين توجه بقواته إلى ميناء (عكا) فاستسلم مَنْ فيها بأمان ودخلها صلاح الدين في جمادى الأولى سنة 583هـ وانتقل الصليبيون منها إلى مدينة

(صور) ثم وقع احتلال المدن والحصون التي حول عكا مثل (تبنين – صيدا – جبيل – بيروت) وبعد ذلك ساير الساحل وحاصر (عسقلان) مدة أربعة عشر يومًا وانتهى الأمر باستسلامها وبذلك نصب صلاح الدين حصارًا على بيت المقدس وحال بينها وبين الإمدادات الصليبية التي كانت ترد إليها من الساحل وتوجه إلى بيت المقدس بعد استلام (الرملة – الداروم – غزة – بيت لحم – النطرون) وفي أثناء توجهه إلى بيت المقدس أرسل إليه أحد المسلمين المأسورين في المقدس قصيدة على لسان المسجد الأقصى يخاطب صلاح الدين ويمدحه ويطلب منه أن يخلص المسجد الأقصى من دنس الصليبيين.

ماذا فعل صلاح الدين الأيوبي بعد انتصاره؟

- لقد تعامل صلاح الدين الأيوبى بعد انتصاره بالسماحة الإسلامية فلم يتعرض للمقدسات المسيحية بسوء ولم يتعرض للقساوسة أو الرهبان بل أعلن حمايته لهم ولمقدساتهم وهو ما نادى به الإسلام وأخذ العهد عليهم بعدم التعرض لجنوده. وعند الفتح أراد السلطان صلاح الدين الأيوبي ألا يتعرض لبيت المقدس بسوء ولا يمسه بأذى واختار دخول مدينة القدس صلحًا دون أن يسلط عليها من قوة جيشه الهائلة ما يهدم أبنيتها وينتهك حرمة مقدساتها وكأنه أراد أن يُعيد سيرة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﵁ في فتحها مرة ثانية. فأوفد الرسل إلى أهلها يطلب منهم التسليم على شروط وضعها قائلاً لهم: «إني على أعتقاد تام بأن القدس هي بيت الله المقدس كما تعتقدون وليس في عزمي أن أتعرض لبيت الله بأذى الحصار أو ضرر الهجوم» بيد أن الفرنج أبوا عليه ما أراد من غير أناة ولا نظر إلى العواقب وعلى أثر ذلك صمم السلطان صلاح الدين أن يستولى على المدينة بطريق الحرب والمقاومة.. ولم يمض أسبوع واحد من المقاومة حتى

استسلمت القدس ورضي الفرنج بالصلح وتم الاتفاق على: «أن يسمح لهم بالخروج في مدة أربعين يومًا يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد اثنين ومن لم يستطع ذلك فهو أسير».

وفي بيت المقدس بدأ السكان يجمعون متاعهم ويخرجون من حيث أمرهم السلطان حيث أقام العمال والموظفين لتسلم الفدية منهم وهم مفارقون وكان أول يوم بدأوا بالخروج فيه يوم الجمعة 27 رجب 583هـ يوم الإسراء فصدقت نبوءة محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق حين قال مخاطبًا للسلطان صلاح الدين:

ونتحكم حلبا بالسيف في صفر　　مبشر بفتوح القدس في رجب

وقد أحضره السلطان صلاح الدين الأيوبى ليكون خطيب القدس في يوم الجمعة الأكبر في المسجد الأقصى بعد أن انقطعت فيه الصلاة هذا الزمن كله منذ احتلال الفرنج له وقد كانت صلاة الجمعة يومًا مشهودًا وصلاة ميمونة لكثرة مَنْ حضر للصلاة ولعظم الفرحة التي غمرت قلوب المسلمين لتحرير المسجد الأقصى.

وإليكم الخطبة بحذافيرها كما جاءت في كتاب الروضتين الجزء الثاني:

وكان أول خطيب في المسجد هو القاضي محيي الدين بن زكي الدين ومما قاله هذا الخطيب بعد مقدمات الخطبة: «أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما



يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة وردها إلى مقرها من الإسلام بعد أن ظلت في أيدي المشركين قريبًا من مائة عام وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه وإماطة الشرك عن طرق بعد أن أمد عليها رواق واستعمر فيها رسمه ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بنى عليه وبالتقوى فإن أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام وقبلتكم التي تصلون إليها في ابتداء الإسلام وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ومقر الرسل ومهبط الوحي ومنزل تنزل الأمر والنهي وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله بالملائكة المقربين وهو البلد الذي بعثه الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته فقال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ المسيح أن يكون غير الله) وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة: 17] وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين لا تُشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ولولا أنكم ممن اختار الله من عباده واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة

التي لا يجاريكم فيها مجار ولا يباريكم في شرفها مبار فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية والوقعات البدرية والعزمات الصديقية والفتوحات العمرية والجيوش العثمانية والفتكات العلوية جددتم للإسلام أيام القادسية والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية فجازاكم الله عن نبيكم أفضل الجزاء وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء وتقبل منكم ما تقربتم إليه من مهراق الدماء وأثابكم الجنة فهي دار السعداء. فقدروا – رحمكم الله- هذه النعمة حق قدرها وتوبوا إلى الله بواجب شكرها فله النعمة بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة».. إلى آخر ما جاءت الخطبة.

وبعد أن تم هذا الفتح العظيم توافد إلى السلطان الشعراء والعلماء والكتاب والمؤرخون ينثرون أمامه من بلاغة الشعر وحكم المقال ما قد ملأ الكتب الطوال وإليك شيئًا مما قاله الشاعر العالم أبوالحسن بن علي الجويني من قصيدة طويلة:

حبذا السماء لهذا الملك أعوان ... من شك فيهم فهذا الفتح برهان

هذه الفتوح فتوح الأنبياء وما ... لها سوى الشكر بالأفعال أثمان

أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده ... صيدًا وما ضعفوا يومًا وما هانوا

تسعون عامًا بلاد الله تصرخ والإس ... لام أنصاره صم وعميان

فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم	**بأمر مَنْ هو للمعوان معوان**
إذا طوى الله ديوانه العباد	**فمايطوى لأجر صلاح الدين ديوان**

وقال محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي المعروف بالجواني نقيب الأشراف بالديار المصرية من قصيدة:

أترى مناما ما بعيني أبصر	**القدس تفتح والفرنجة تكسر**
وعليكم في القيد مصعود ولم	**ير قبل ذلك لهم مليك يؤسر**
فتح الشآم وطهر القدس الذي	**هو في القيامة للأنام المحشر**
يا يوسف الصديق أنت لفتحها	**فاروقها عمر الإمام الأطهر**
ولأنت عثمان الشريعة بعده	**ولأنت في نصر النبوة حيدر**

7 - سياسة صلاح الدين في معاملته للصليبيين:

- من بنود الصلح التي تمت بين الفرنج وصلاح الدين: «أن يسمح لهم بالخروج في مدة أربعين يومًا يدفع عن الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد اثنان ومن لم يستطع ذلك فهو أسير» غير أن السلطان صلاح الدين قد تجاوز بند المعاهدة وعامل الصليبيين معاملة عطف ورحمة وإحسان ليعطي للبغاة المعتدين والملوك المستبدين الظالمين والصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين النموذج الطيب والقدوة الصالحة في السماحة والعدل والعفو عند المقدرة.. ليعرف أولئك جميعًا أن الإسلام دين الرحمة والإنسانية لم يظهر ليشهر سيفًا

على مغلوب أو ينتقم من مستأمن أو يريق الدم البشري ظلمًا وعدوانًا وإليكم ما فعله صلاح الدين بأعدائه بعد أن أمكنه الله منهم .

رأى السلطان أن عددًا كبيرًا من الإفرنج يحمل على ظهره والديه الضعيفين أو أقاربه المرضى فأثر فيه هذا المنظر أشد التأثير وهاله الأمر كثيرًا ولم يطق صبرًا على رؤيته فأمر بالمال فأعطى لهم وبالدواب فوزعت عليهم لتحمل أثقالهم.

ولقد أتت شفقته بالنساء أكبر وعطفه عليهن أعظم فقد كان بالقدس إذ ذاك إحدى نساء ملك من ملوك الروم وقد ترهبت وأقامت تتعبد وتتقرب إلى الله والتف حولها خلق كبير من الخدم والأتباع وكانت ذات مال كبير فأمنها السلطان على نفسها ومالها وأتباعها .

ولما أستأذنته الملكة «سيبيل» في الرحيل هي وأتباعها أظهر لها من اللطف والتأسف على حالها ما أنطق الألسنة بالشكر له والثناء عليه خاطبها بكل حنو ورحمة وسيرها إلى زوجها السجين بقلعة (نابلس) وسمح لها بالمكوث فيها عنده وقد تبعها في خروجها عدد كثير من النساء الباكيات الحاملات أطفالهن بين أذرعهن ولما اقترين من السلطان تقدمن إليه وخاطبنه:

«أيها السلطان: أترانا الآن راحلات عن هذه الديار ونحن بين زوج وأم أو ابنة لأولئك الجند الذين لا يزالون في أسرك ونحن الآن نغادر

هذه الديار إلى الأبد وهؤلاء الجند الذين نتركهم عدتنا في حياتنا وسلاحنا في أيامنا فإذا ما فقدناهم فقدنا الحياة أما إذا وهبتهم لنا فقد وهبت لنا النعيم وخففت بذلك آلامنا وأزحت بؤسنا وأبعدت عنا شقاءنا فإنا لا نكون على ظهر هذه الدنيا من غير مساعد أو عائل.

تأثر السلطان بما سمع وما رأى من بكائهن وأمر بإعطاء الأمهات أبناءهن والزوجات بعولتهن والبنات آبائهن وحلف ليعاملن من بقي في الأسر بكل إحسان ورحمة.

ويقول (إستفيق سن): «إن السلطان قد سمح لعدد كبير بالرحيل من غير جزية» ويروي (استانلي لين بول) أن (أرنولد) يقول: «إن السلطان قد قضى يومًا من أول بزوغ الشمس إلى غروبها وهو فاتح الباب للعجزة والفقراء تخرج من غير أن تدفع الجزية».

- وقد أذن السلطان لرجال الدين والناس كافة أن يحملوا معهم ما شاءوا من المتاع والأموال فأخذوا معهم ما شاءوا دون أن يعترضهم في ذلك معترض تاركين ما لا قبل لهم بحمله فابتاعه المسلمون منهم.

واستأذن (الملك العادل) أخاه صلاح الدين بإعفاء سبعة آلاف من الفقراء والمساكين من الفدية وأعفى السلطان صلاح الدين ما يقارب عشرة آلاف.

هذه المعاملة الحسنة من السلطان صلاح الدين للإفرنج بعد انتصار

حطين كانت تخالف ما كانوا هم عليه في معاملتهم السيئة لبعضهم بعضًا فضلاً عن معاملتهم الحاقدة للمسلمين في الحرب الصليبية الأولى. وإليكم ما يرويه (الأمير علي) عن (مل) المؤرخ الإنجليزين: «ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى أنطاكية المسيحية فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم فطردهم فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحيب».

ويقول الأمير علي أيضًا: «ولقد وصف (ميشود) حال أولئك الذين طردوا من القدس وما لاقوه من إخوانهم المسيحيين من عدم احترام الإنسانية فقد تضور عدد منهم جوعًا في سوريا وهم على أشد ما يكونون من البؤس وقد أغلقت طرابلس أبوابها في وجوههم — ثم قال ميشود -: وقد اضطرت إحدى السيدات أن تلقي بولدها في اليم وهي تلعن أولئك المسيحيين الذين أبوا أن يضيفوها أو يؤوها» وقيل للسلطان صلاح الدين والبطرك خارج بأمواله وذخائره وكانت كثيرة جدًا: لم يصرفها في فداء الفقراء والمساكين بعد أن وصف — ستانلي — البطرك بأنه من غير ضمير صلاح الدين الأيوبى قيل للسلطان: «لم لا تصادر هذا فيما يحمل وتستعمله فيما تقوى به أمر المسلمين؟ فقال لهم صلاح الدين الأيوبى: «لا آخذ منه غير العشرة دنانير ولا أغدر به» وفي ذلك يقول (ستانلي لين بول): «وقد وصل الأمر إلى أن سلطانًا

مسلمًا يلقى على راهب مسيحي درسًا في معنى البر والإحسان».

أمـا معاملتهم الحاقدة على الإسـلام والمسلمين في الحرب الصليبية الأولى والمجازر الوحشية التي ارتكبوها وآلاف النفوس البشرية التي أزهقوها وحمامات من الـدم الفوار التي أراقوها فالتاريخ لا ينسى ما اقترفته أيديهم الآثمة من قتل وغدر وحقد وإجـرام.. عندما وطئت أقدامها (يقصد الحملة الصليبية الأولى) أرض القدس سنة 492 – 1099م وإليكم ما قاله (ميشود) عند دخولهم القدس كما جاء في كتاب (الأمير علي) نقلاً عن (مل) المؤرخ الإنكليزي: «كان المسلمون يقتلون في الشوارع والبيوت ولم يكن للقدس من ملجأ يلجأ إليه من نتائج النصر فقد فر بعض القوم من الذبح فألقى بنفسه من أعلى الأسوار وانزوى البعض الآخر في القصور والأبراج وحتى في المساجد أن هذا كله لم يخفهم عن أعين المسيحيين الذين كانوا يتبعونهم أينما ساروا ثم يقول: «ولقد اندفع المشاة والفرسان وراء الهاربين فلم يسمع في وسط هذا الجمع المكتظ إلا نزعات الموت وسكراته ومشى أولئك المنتصرون فوق آكام من الجثث الهامدة وراء أولئك الذين يبحثون عن ملجأ أو مأوى» ثم يروي (الأمير علي) عن ميشود ما معناه: «أما أولئك الذين أبقاهم الفرنج أسياد أملاً في أموالهم فقد ذُبحوا عن آخرهم بلا مبالاة

ولا شفقة حتى اضطر المسلمون إلى أن يلقوا بأنفسهم من فوق المنازل وقد أحرق بعضهم وهم أحياء وسحب آخرون من أخبيتهم إلى الساحات العمومية وقتلوا على جثث القتلى هناك ثم أضاف (مل) قوله: «ولم يتحرك أي قلب حنانًا ولا شفقة على أولئك الأبرياء ولم يتقدم إلى عمل البر والإحسان رجل واحد نحو سبعين ألف نفس ذهبت ضحيته بلا ذنب» على يد الصليبيين.

هل سمعتم في التاريخ سماحة أروع وأنبل من سماحة صلاح الدين؟ وهل طرقت مسامعكم وحشية ظالمة أفظع وأكبر من وحشية الصليبيين؟ ورحم الله من قال:

ملكنا فكان العدل منا سجين ... فلما ملكتم سال الدم أبطح

وحللتم قتل الأسرى وطالما ... غدونا على الأسرى تمن وتصفح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

«وكان الفرق جليًا بين معاملة صلاح الدين للمدنيين من الفرنج ومعاملة الفرنج للمسلمين قبل ذلك بثمان وثمانين سنة».

حصار عكا والحملة الصليبية الثالثة:

الحقيقة التي لا ريب فيها هي أن الصليبيين خرجوا من بيت المقدس ومن عكا وغيرهما من البلاد بعد انتصار صلاح الدين الأيوبى عليهم. تحت حماية القوات الإسلامية إلى مدينة (صور) بعد

أن تعهدوا بعدم الرجوع إلى الحرب وعدم إخفاء الذمة والعهد ولكن الصليبيين نقضوا عهدهم وأخلوا بوعودهم وقطعوا كل ذمة أعطوها للسلطان صلاح الدين الأيوبى .

فما أن اجتمعت الفلول اللاجئة إلى مدينة (صور) حتى أغراها اجتماعها وكثرتها على نقض العهد الذي أعطته لصلاح الدين الأيوبى لهذا توجه الصليبيون إلى مدينة (عكا) ونصبوا عليها الحصار اعتمادًا على قوتهم وعلى الإمدادات التي ترد إليهم من أوروبا وحصار عكا كان له دوي في التاريخ نظرًا لطوله الزمني الذي استمر عامين ونظرًا لضروب الشجاعة والبسالة والإقدام التي أظهرها كل من المتحاربين سواء من المسلمين أو الصليبيين.

لقد تحركت الجيوش الصليبية إلى عكا في 8 رجب 585هـ - 1890م وما أن وصلوها حتى حاصروها برًا وبحرًا ثم وصلت الجيوش الإسلامية وحاصرت القوات الصليبية من ناحية البر ونصب صلاح الدين خيمته وأستمرت المناوشات والمعارك وكان الأمر يشتد كل يوم وساعة فصلاح الدين بعث النفير إلى أطراف مملكته يحث المسلمين على التحرك والجهاد، والصليبيون تتوارد عليهم الإمدادات من أوروبا التي ضجت لإستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس وبينما كان الصليبيون يحاصرون مدينة (عكا) كانت

ممالك أوروبا تستعد لحرب صليبية ثالثة إثر الانتصارات الباهرة التي سجلها صلاح الدين ضد الإمارات الصليبية واسترجاعه لبيت المقدس وقد امتازت الحرب الصليبية الثالثة بأن كان على رأسها أعظم ملوك أوروبا في ذلك الزمان:

1 - إمبراطور ألمانيا (فريدريك بريدوس).

2 - ملك فرنسا (فيليب أوغسطس).

3 - ملك الإنجليز (ريتشارد قلب الأسد).

أما مصير الحملة الألمانية: فإن الإمبراطور الألماني سار في جيش كبير يقارب مائة ألف محارب مخترقًا بلاد المجر في اتجاه القسطنطينية وأفزع هذا الجش العرمرم إمبراطور بيزنطة (إسحاق لانج) فلم يجد الألمان من الإمبراطور البيزنطي مساعدة ولا استبشارًا وبلغ الأمر بالإمبراطور البيزنطي أن أبلغ صلاح الدين بمجئ الألمان وأعلمه بأنه سوف لا يمدهم بأية إعانة وعبرت الجيوش الألمانية إلى آسيا الصغرى ولما وصلوا (أرمينية) وجدوا من الأرض خير مساعد إلا أن غرق الإمبراطور الألماني (بربروس) وموته بنهر (سالف) في جبال أرمينية جعل الجيش الألماني في تشتت واضطراب ورجعت غالبيته إلى ألمانيا أما بقيته فقد ركبوا السفن إلى (عكا وصور) بقيادة (فردريك دواسوب) ابن الإمبراطور الألماني السابق وحتى

هذا الابن مات أثناء الطريق ولم يصل إلى عكا من الألمان إلا عدد قليل من هذا الجيش العرمرم الذي لو وصل كاملا لكان له أثر كبير في النزاع بين الصليبيين وصلاح الدين.

أما الحملتان الفرنسية والإنجليزية فكانتا كما يلي:

التقى الإنجليز والفرنسيون في (صقلية) وأقاموا فيها مدة طويلة لخلاف وقع بينهما بينما الصليبيون في عكا ينتظرونهم بفارغ الصبر وأخيرًا بارح الفرنسيون صقلية وبعد عشرة أيام بارحها الإنجليز واستبشر الصليبيون بوصول القوات الفرنسية إلى عكا لإضافتهم قوة اخرى تشد من أزرهم وتمكن من انتصارهم.

أما ملك الإنجليز – قلب الأسد – فقد ألقت عاصفة بأسطوله على جزيرة قبرص التي كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية فما كان من قلب الأسد إلا محاربة البيزنطيين والاستيلاء على قبرص والاستقرار بها مدة ثم أبحر إلى عكا بعد أن استنجد به ملك بيت المقدس الذي أطلقه صلاح الدين من الأسر.

واستمرت المعارك بين صلاح الدين والصليبيين وحاولوا مرات الاقتراب من بيت المقدس حتى أصبحوا مرة على بعد فرسخين منها وكان قلب الأسد لا يقوى على محاصرة بيت المقدس فخافه أن يكون

الحصار قاضيًا عليه لأن حماة بيت المقدس لم يكونوا كحالتها في الصليبية الأولى وتكاد الوقائع الحربية تكون سجالاً بين الصليبيين وصلاح الدين: الصليبون لم يستطيعوا التوغل داخل البلاد الشامية وإنقاذ بيت المقدس وصلاح الدين لم تسنح له الظروف في زحزحة الصليبيين عن الساحل وإلقائهم في البحروالانتصار عليهم ولهذا كانت الدعوة إلى المهادنة والصلح تجد رغبة عند الجانبين وإنما كان يعرقلها اشتراط الشروط وعدم التنازل. وأخيرًا ركن الطرفان إلى الصلح والمهادنة فتم ذلك في شعبان في المرحلة سنة 588هـ - الموافق 1162م وكان أهم ما في هذا الصلح:

1 - أن يستقر الصليبيون في الشريط الساحلى الممتد من صور إلى حيفا.

2 - السماح للنصارى بزيارة بيت المقدس دون ضريبة يدفعونها.

3 - أن تقع هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر.

والشريط الساحلي الذي استقر فيه الفرنج هو الذي اعتبر امتدادًا لمملكة بيت المقدس السابقة وأصبحت مدينة عكا عاصمة لمملكة بيت المقدس الجديدة.

وبعد الهدنة بقليل غادر قلب الأسد السواحل الشامية قاصدًا بلاده بعد أن اكتسب شهرة عظيمة وأصبح ألمع شخصية في الحرب

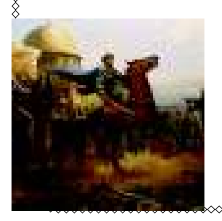
الصليبية الثالثة.

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثالثة بعد حرب دامت خمس سنوات ذهبت فيها أرواح الكثيرين وخربت بلاد وفقدت ألمانيا إمبراطورًا من أعظم أباطرتها كما فقدت فرنسا وإنجلترا نخبة من زهرة شباب البلاد وقوادها).

كان هذا دون أن ينال الفرنج سوى عكا فلم تعان نتيجة هذه الحرب بأي شكل من الأشكال ما تكبدته أوروبا وفقدته في سبيلها، قامت هذه الحرب وما كان للمسلمين إذ ذاك قيد شبر من أرض فلسطين قبل صلاح الدين أما بعد موقعة حطين وصلح الرملة فقد أصبحت فلسطين كلها مسلمة عدا الجزء الضيق من صورإلى عكا. وصار بذلك صلاح الدين من القوة والمنعة بحيث لا يهتز لأي قوة أخرى. فخضع لسلطانه أمراء تلك الجهات كلها وطرد الفرنج من البلاد واسترد بيت المقدس وأعاد للإسلام مجده التليد وسلطانه العظيم وكون مملكة كبيرة تشمل شمال العراق (الكردستان) والشام ومصر وفلسطين وبرقة في فترة قصيرة من الزمن تعد قصيرة بالنسبة لعمر التاريخ.

الفصل الرابع

أسرار انتصار صلاح الدين الأيوبى في معركة الحطين





صلاح الدين الأيوبي
وأسرار الانتصار على الصليبيين

لم يكن انتصار صلاح على الصليبيين مجرد مصادفة أو لقوته العسكرية فحسب بل كانت هناك أسرار أخرى أدت إلى هذا الانتصار أن النصر الأكبر الذي أحرزه صلاح الدين في حروبه مع الصليبيين هو معركة «حطين» الفاصلة فكان من نتيجة هذا الانتصارالخالد تحرير بيت المقدس من براثن الصليبية الحاقدة بعد أن عاثوا فيه بغيًا وفسادًا ما يقارب مائة عام ولقد سجل التاريخ هزيمتهم المنكرة بعد أن خلفوا وراءهم الآلاف من بني قومهم بين قتيل وأسير وجريح.

وإذا كان للنصر أسباب ومقدمات فلنبحث عن أهم هذه الأسباب والمقدمات التي حققت للبطل صلاح الدين نصره الخالد في معركة «حطين» المظفرة.

ويجب ألا يغرب عن البال أن الأسباب التي هيأت للبطل المظفر صلاح الدين الأيوبى دروسا لنا جميعاً وأن المقدمات التي حققت للأمة الإسلامة النصر لم تكن من القائد البطل صلاح الدين الأيوبى

ولم تكن من إبداعه وابتكاره وإنما هي متابعته المسيرة التي نهجها الرسول صلوات الله وسلامه عليه في بدر والأحزاب وفتح مكة.. وسيره على الدرب الذي سار فيه الصحابة الكرام في معارك القادسية واليرموك.. فمن البديهي أن ينتصر صلاح الدين الأيوبى على النهج ومن الطبيعي أن يمكنه الله من أعدائه لسلوكه المسلك الذي سلكوه والتزامه المنهج الذي نهجوه وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾(الحج: 40 – 41) والأمة الإسلامية – في كل زمان ومكان – حين تأخذ بهدي هذه الآية الكريمة وتعمل على تهيئة الأسباب للنصر وتسعى مخلصة في تحقيقها وتسهر جادة على تنفيذها بأن الله جلت حكمته سيحقق لها ما تنشره من عز ونصر وما تتمناه من مجد وسيادة لأنه القائل في كتابه العزيز: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾(النور: 55).

أما سر الانتصار وأسبابه فيعود إلى الأمور التالية:

1 - تقوى الله والاحتراس من المعاصي:

إن تقوى الله والخشية منه وحسن الظن به والالتجاء إليه واجتناب المحارم وتنفيذ الأوامر، هي أول مقدمات النصر ومعالمه المبشرة لأن هذه المعاني الروحية والقوى المعنوية إن تأصلت في الجيش المسلم المحارب جعلت هذا الجيش قوة هائلة لا تعرف الضعف والخور وطودًا راسخًا لا تزلزه العواصف الهوج ولا تنال منه حادثات الليالي والله سبحانه لن يتخلى عن هذا الجيش المؤمن الواثق به المعتمد عليه المنفذ لأحكامه مهما كانت حراجة الموقف ومهما تألب العدو على أمة الإسلام وتآمر فإذا أعوزت الأمة الإسلامية المجاهدة المعونة المادية والأسباب الأرضية فإن الله تعالى سيمدها بمدد السماء ويقذف في قلوب أعدائها الرعب وينصرها من حيث لم تحتسب وهو القائل في محكم كتابه:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الأنفال: 12، 13).

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: 10) ومن الأمثلة التي



نوردها في احتراس صلاح الدين من المعاصي وقمعه للفواحش والمنكرات موقفه الرائع في إبطاله مظاهر الخلاعة والمجون أيام تقلده الوزارة في مصر هذه المظاهر كانت متفشية في المجتمع المصري في عهد الفاطميين لاسيما في المواسم والأعياد كعيد النيروز «إذ كانت المنكرات ظاهرة فيه والفواحش صريحة في يومه ويركب فيه أمير موسوم بأمير النيروز ومعه جمع كثير ويتسلط على الناس في طلب رسم رتبة على بيوت الأكابر ويقنع بالميسور من الهبات ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤ حيث يشاهدهم الخليفة (الفاطمي) وبأيديهم الملاهي وترتفع الأصوات وتشرب الخمور في الطرقات ويتراش بالماء والخمر وبالماء ممزوجًا بالقاذورات فإن غلط مستور وخرج من داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه فإن فدى نفسه وإما فضح...».

أما فيما يتعلق بتقواه وسلوكه العبادي وخشيته من الله: فإن مرافقه القاضي بهاء الدين يحدثنا الكثير عن جانب التقوى والخشية والعبادة التي شاهدها منه في حله وترحاله يقول القاضي: «وكان رحمه الله خاشع القلب غزير الدمعة إذا سمع القرآن خشع قلبه ودمعت عينه.. وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الدين وكان مبغضًا للفلاسفة ومن يعاند الشريعة وإذا سمع عن معاند ملحد في مملكته كان يأمر بقتله».



(وكان ناصرًا) للتوحيد وقامعًا أهل البدع لا يؤخر صلاة ساعة إلى ساعة وكان له إمام مواظب على التنقل معه في غدواته وروحاته يُصلى به الصلوات الخمس في أوقاتها فإذا غاب هذا الإمام صلى به من في حضرته من أهل العلم المتجنبين للإثم وكان يواظب على صلاة السنة وكان له ركعات يصليها إذا استيقظ بوقت من الليل وإلا صلاها قبل صلاة الصبح».

ويقول أبو شاقة صاحب كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» أنه رآه يصلي في مرضه الذي مات به وهو قائم وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى.. «وكان يوصي أولاده ومن يعنيهم من الولاة بتقوى الله وامتثال الأوامر الإلهية وحفظ الحقوق واجتناب الظلم نقل (ستانلي لين بول) عن المؤرخين المسلمين أنه قال لابنه الظاهر ذات يوم: «أوصيك بتقوى الله فهي رأس كل خير وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك واحذر من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فإن الدم لا ينام وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالها فأنت أميني وأمين الله عليهم».

فقائد تلك حاله ورئيس هذه صفاته.. هل يعقل أن يتخلى الله عنه أو يخذله في أحرج المواقف وأقسى الظروف والشدائد؟

يقول القاضي ابن شداد: «كان إذا سمع أن العدو قد داهم المسلمين خر إلى الأرض ساجدًا لله داعيًا بهذا الدعاء: (إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك أنت حسبي ونعم الوكيل..) ويقول: (ورأيته ساجدًا ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول ولم ينقض ذلك اليوم إلا ويأتيه أخبار النصر على الأعداء.. وكان أبدًا يقصد بوقعاته الجمع سيما أوقات صلاة الجمعة تبركًا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب للإجابة». وهذا النهج الذي نهجه صلاح الدين هو نهج الخلفاء من قبله حيث كانوا يأمرون الأجناد بتقوى الله والجيوش من الاحتراس للمعاصي والأمة بالعمل بأحكام الإسلام.. فهذا عمر بن الخطاب الخليفة الراشد رضي الله عنه كتب إلى سعد بن أبي وقاص حين وجهه إلى فتح فارس عهدًا هذا نصه:

«أما بعد: فإني آمرك ومَنْ معك بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لها بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم وعدتنا ليست كعدتهم فإن استوينا في المعصية كان لهم

علينا الفضل في القوة وإن لم ننتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.

فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم.. فلا تقولوا: إن عدونا أضعف فلن يسلط علينا وإن أسأنا فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم كما سلط على بني إسرائيل – لما عملوا بالمعاصي سلط عليه – كفار المجوس.

وسلوا الله العون على أنفسكم كما تسألون النصر على عدوكم وأسأل الله ذلك لنا ولكم».

نستنتج من هذا كله أن هذه الأمة الإسلامية لا تنصر على أعدائها في كل زمان ومكان إلا بتقوى الله والثقة به والالتجاء إليه والعمل بشريعته والامتثال لأوامره. والاجتناب لنواهيه.. فهذا هو طريق النصر وهذا هو طريق الخلود وهذا هو طريق الحياة.

2 - الإعداد الكامل والاهتمام البالغ لقضية التحرير:

من الأمور التي أجمع عليها المؤرخون عن صلاح الدين أن اهتمامه لقضية التحرير كان اهتمامًا بالغًا ملك عليه وقته وراحته واستحوذ على كل ما تتطلبه النفس من أشواق وما تنشده من اطمئنان واستقرار يقول مرافقه القاضي بهاء الدين في وصف حال صلاح الدين في استنفار المسلمين واستنهاض هممهم للجهاد في سبيل الله ووقفته الباسلة أمام الصليبيين: «كان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال»



وقال: «وهو كالوالدة الثكلى يجول بفرسه من طلب إلى طلب ويحث الناس على الجهاد ويطوف بين الأطلاب بنفسه وينادي: يا للإسلام.. وعيناه تذرفان بالدموع وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ولم يطعم في ذلك اليوم طعامًا البتة وإنما شرب أقداح دواء كان يشير بها الطبيب» وقال: «والسلطان صلاح الدين الأيوبى يوالي هذه الأمور بنفسه ويكافحها بذاته لا يختلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول الغذاء إلا شيئًا يسيرًا لفرط اهتمامه». «وكان حديث الجهاد يشغله دائمًا ويستولى على قلبه وجوانحه استيلاء عظيمًا بحيث لم يكن له حديث إلا عنه ولم يكن له نظرإلا في وسائله أو اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه». ومن أجل الجهاد وإعلاء كلمة الله هجر أهله وولده وظل بعيدًا عنهم فترة طويلة من عمر الجهاد حتى يخلص الأرض المقدسة من براثن الصليبيين الحاقدة ويطهرها من الغزاة المتوحشين.

أما اهتمامه رحمه الله بالاستعداد الحربي وتهيئة أسباب القوة المادية فلا يقل عن اهتمامه بالإعداد الروحي والمعنوي فمن ضروب هذا الاستعداد إنشائه ديوانًا للجيش وكان لصاحب هذا الديوان اختصاصات واسعة «منها أن ينتقل أثناء المعركة من صف إلى صف

للتأكد من سلامة الخيل وصلاحية السلاح وعدد الجنود واستعراض ملابسهم وزينتهم وأنهم جميعًا في حال مرضٍ..

كما اهتم بصناعة الأسلحة وبناء السفن وعمل المفرقعات وتركيب الألغام والمجانيق وما إليها من أدوات القتال وقد عني صلاح الدين بالأسطول فأنشأ له ديوانًا خاصًا به يختص بموارده وطرق صرفها وإدارة شئون الأسطول وأطلق على رئيس الأسطول «أمير البحر» أو«أمير الماء».

وبعد هذا الاهتمام البالغ والإعداد الكامل.. يكر على العدو بإيمان راسخ وعزيمة صادقة فإذا هو مندحر منهزم لا يلوي على شيء.

وهذا سبب في دحر العدو والوصول إلى شاطئ النصر والكرامة.

3 - وحدة البلاد السياسية تحت إمرة واحدة:

سبق أن ذكرنا أن صلاح الدين رحمه الله حين انتصب على كرسي الوزارة بمعدومات آخر خليفة فاطمي سنة 567هـ أصبح صلاح الدين سلطانًا على مصر ثم وسع دائرة مملكته إلى بلاد النوبة (جنوبي مصر) ووحد بلاد اليمن والحجاز وأصبح البحر الأحمر تحت حكمه وسيادته ومما ذكرناه كذلك أن (نور الدين) صاحب البلاد الشامية حين وافاه الأجل عمل صلاح الدين على ضم مملكتيه إليه بعد أن دخلها الانقسام والاضطراب فامتلك دمشق وحلب وبقية

البلاد الشامية.. وتكونت لصلاح الدين يومئذ وحدة إسلامية تشمل شمال العراق (كردستان) والشام واليمن ومصر وبرقة.. وغيرها.

ولا شك أن إرساء هذه الوحدة وتثبيت دعائمها كان له أكبر الأثر في تحرير الأرض المقدسة بعد أن كانت تحكم من قبل الصليبيين ما يناهز المائة عام ومما لا يتجادل فيه اثنان أن البلاد حين تتوحد إسلاميًا وترتبط ببعضها سياسيًا وحيت يتولى إمرتها رجل مؤمن وبطل محنك وقائد شجاع وسلطان مدرب وأمير مخلص.. فإن النصر للأمة الإسلامية لابد أن يتحقق وأن راية العز الإسلامي ستخفق لا محالة في أرض الإسلام وبلاد المسلمين. وهذا ما استطاع أن يفعله البطل المخلص صلاح الدين الأيوبى قاهر الصليبيين وطارد الغزاة المتوحشين ومحرر المسجد الأقصى ثالث الحرمين وأولى القبلتين ومهد عيسى ومسرى النبي لله رحمه الله وغفر له ورفعه في الآخرة مقامًا عليًا.

4 - الهدف من القتال إعلاء كلمة الله:

من المقرر في الشريعة الإسلامية أن المجاهد قبل أن يخوض معارك الجهاد ويقاتل أعداء الإسلام عليه قبل كل شيء أن يحرر النية من كل قتال لأجل المغانم أو السمعة أو الحمية أو الرياء.. حتى يكون جهاده خالصًا لوجه الله وفي سبيل مرضاته تحقيقًا لقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ (النساء: 76).

وفي الحديث: لما سئل النبي عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء.. أيهم في سبيل الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

انطلاقًا من مبدأ القتال لإعلاء كلمة الله خاض صلاح الدين الأيوبى حروبه مع الصليبيين فقد ذكر القاضي بهاء الدين بن شداد في كتابه (النوادر السلطانية) حكاية يؤخذ من مغزاها ومعناها أن قتال صلاح الدين الأيوبى للفرنج كان في سبيل الله وإعلاء كلمته قال القاضي: «لأحكين عندما سمعت منه.. في ذي القعدة سنة 584هـ انه أعطى العسكر دستورًا وأخذ عسكر مصر في العودة إلى مصر وكان أخوه الملك العادل أمير الجيش فسار معه ليودعه ويخطى بصلاة العيد في القدس وقع له أن يمضي إلى عسقلان ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ويرتب أحوالها فأشاروا عليه ألا يفعل فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة والفرنج كلهم في صور وهذه مخاطرة عظيمة فلم يلتفت رحمه الله ووداع أخاه والعسكر بعسقلان ثم سرنا في خدمته إلى الساحل طالبين عكا وكان الزمن شتاء والبحر هائجًا شديدًا وموجه كالجبال..

فبينما أنا في ذلك التفت إليَّ صلاح الدين رحمه الله وقال: أما أحكي لك شيئًا في نفسي: إنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره وأتبعتهم فيها لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت.. فعظم هذا الكلام عندي.. ثم قال القاضي للبطل: ما ينبغي أن يخاطر المولي بنفسه وبعسكره في ركوب البحر والعسكر وهو سور الإسلام ومنعته فقال له صلاح الدين: أنا استفتيتك ما أشرف الميتتين عندك؟ فقلت: الموت في سبيل الله قال صلاح الدين: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتتين؟ فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها وإلى هذا النفس ما أشجعها وأجرأها رحمة الله عليه اللهم إنك تعلم أنه بذل جهد في نصرة دينك وجاهدًا رجاء رحمتك فارحمه» اهـ كلام القاضي.

وسبق أن أشرنا إلى استغثاته والإلحاح في دعائه حين مصارعته للأعداء ومنازلتهم.. فمن دعائه في هذا المجال: «إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ولم يبق إلا الأخلاء إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك أنت حسبي ونعم الوكيل» وهذا دليل آخر على أن جهاده كان في سبيل الله.

ومن الأدلة الأخرى التي تؤكد أن قتاله كان لإعلاء كلمة الله: مواقفه النبيلة التي وقفها مع أعدائه. والمؤرخون جميعًا من شرقيين وغربيين

ومسلمين ومستشرقين قد أفاضوا في تعداد هذه المواقف وتسجيل هاتيك المآثر.. منها توزيعه المال والدواب على المرضى والمسنين والفقراء من الفرنجة ومنها قبول فدائه للأسرى وإكرامهم وعدم التعرض لهم بأذى.. إلى غير ذلك من المآثر الكريمة والمواقف الخالدة التي سجلها التاريخ في صفحاته وتلقتها الأجيال عن الأجيال.

(وكان الفرق جليًا بين معاملة صلاح الدين للصليبيين المدنيين من الإفرنج ومعاملة الإفرنج للمسلمين قبل ذلك بثمان وثمانين سنة) ولقد ذكرنا الشيء الكثير بحث «سياسة صلاح الدين في معاملة الصليبيين» عن رحمة صلاح الدين بالأسرى ومعاملته النبيلة للنساء والأطفال والشيوخ.

5 - قضية التحرير كانت قضية الإسلام والمسلمين:

ومن الأمور التي قررتها الشريعة الإسلامية: أن الكفار إذا اغتصبوا أرضًا للمسلمين وجب على جميع المسلمين في الأقطار الإسلامية أن يقوموا فوق الرجل الواحد لتخليص الأرض المغتصبة من براثن الأعداء وإذا قصروا في هذا الواجب فإن المسئولية الإلهية والتاريخية تعم الأمة الإسلامية قاطبة في مشارق الأرض ومغاربها لتقصيرهم المفرط وتهاونهم الأليم.. وصدق الله العظيم القائل:

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا

تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ (التوبة: 39) والقائل: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (التوبة: 41).

انطلاقًا من هذه الفكرة وتحقيقًا لهذا المبدأ جمع صلاح الدين الكردي جموع المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم تحت لواء الوحدة الإسلامية ليقفوا وقفة صامدة أمام الصليبيين الحاقدة والاستعمار اللئيم أمام القوة الباغية التي دنست مهد عيسى وانتهكت مسرى محمد لله بوحشية فاجرة وهمجية وضيعة وتسلط بغيض.

وكيف لا يهب المسلمون هبة الرجل الواحد وقد جعلهم الإسلام أخوة متحابين متراحمين متعاطفين كالجسم الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى؟

وكيف لا .. وقد جمعهم الإسلام تحت راية واحدة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى؟ واليوم فلسطين تناديكم يا أمة الإسلام فلسطين المحتلة التى يدنس أرضها وقدسها عصابه الصهاينة لعنهم الله..

الفصل الخامس

صلح الرملة
ووفاة صلاح الدين الأيوبي



صلح الرملة
ووفاة صلاح الدين الأيوبي

على الرغم من أن صلاح الدين الأيوبي كان قائدًا فخورًا فذًا لا يهاب أعدائه مطلقًا إلا أنه كان دائمًا يبحث ويفضل السلم والسلام عن الحرب والقتال وقد بذل جهودًا لا يمكن إنكارها في سبيل العيش مع الفرنجة في أمان. ومما دلت عليه الشواهد التاريخية أن صلاح الدين لم يقدم على مصالحة الصليبيين مختارًا وإنما الظروف السيئة هي التي ألجأته إلى الصلح مضطرًا بعد أن رأى (سآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة)ولو سارت الأمور لصلاح الدين على حسب ما يهوى لاستمر الجهاد لإعلاء كلمة الله حتى تتطهر بلاد الشام وأرض فلسطين من الشراذم الباغية والغزاة المعتدين وكان أخشى ما يحذر منه صلاح الدين هو أن الصليبيين في بعض مراكزهم ببلاد الشام يعيثون فيها فسادًا ويتحدون ويجتمعون ثم ينقضون على العالم الإسلامي لتقويضه والسيطرة عليه وإحداث البلبلة فيه كما كانوا يصنعون.

ويؤكد القاضي ابن شداد في كتابه «النوادر السلطانية» هذا المعنى قائلاً: والله العظيم إن الصلح لم يكن من إيثاره فإنه قال لي في محاوراته في الصلح: أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون.

وعلى كل حال إن صلح (الرملة) قوبل بالارتياح التام من المسلمين والصليبيين سواء بعد أن ملوا جميعًا تلك الحروب الطويلة الطاحنة التي كانت تأتي على الأخضر واليابس فتجعله خرابًا والتي لم تنته إلى نتيجة حاسمة يرضى عنها الطرقان بل أصبح الناس يتوقون إلى فترة من الهدوء والاستقرار يباشرون فيها تقدمهم الحضاري ونشاطهم العمراني ويصور لنا (المقريزي) في كتابه (السلوك) عظم الفرحة التي عمت المسلمين والصليبيين سواء عند إعلان الصلح فيقول: «كان يوم الصلح يومًا مشهودًا عم فيه الطائفتان الفرح والسرور لما نالهما من طول الحرب».

ومهما يكن من أمر فإن صلاح الدين أعلن «أن الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل» وبعد هذا الإعلان السلمي من صلاح الدين أخذ النشاط يسير سيرًا حسنًا في طريق التجارة وازدهار الحياة الاقتصادية وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة وابتغاء الرزق وعادت الحياة الطبيعية إلى فلسطين وبات الناس ينعمون



بالأمن والاستقرار وفتح السلطان صلاح الدين الباب على مصراعيه لزيارة بيت المقدس من قبل الصليبيين ودخل معه النصارى للزيارة ما لا يتصوره عقل ولا يحصيه رقيب ولما علم «ريتشارد قلب الأسد» كثرة من يزور بيت المقدس من الحجاج النصارى خشي أن يغضب صلاح الدين لذلك وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار واقترح ألا يؤذن لهم إلا بعد إحضار علامة من جانبه أو كتاب منه» ولكن صلاح الدين أبى ذلك ورد عليه بأن أولئك الزوار «قد وصلوا من ذلك البعد لزيارة هذا المكان الشريف فلا استحل منعهم» «بل إن أصلاح الدين بالغ في إكرام من يرد إلى بيت المقدس من الزوار النصارى» وشرع في مد الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم).

وبهذا التسامح النبيل والأخلاق الرضية لقن صلاح الدين ملوك الغرب والشرق دروسًا في التسامح والعفو ومكارم الأخلاق .. وذلك قبل أن يركب (قلب الأسد) البحر قافلاً إلى بلاده رحم الله صلاح الدين وأعلى مقامه في عليين.

وبعد أن تم توقيع صلح الرملة توجه صلاح الدين إلى بيت المقدس متفقدًا أحواله ومنظمًا أموره وأصدر أوامره في فتح المدارس وإنشاء المستشفيات وتنظيم الإدارات.. ثم أعلن رغبته في أداء فريضة الحج فخاف الأمراء غدر الفرنج به إذا علموا ذلك

فألحوا عليه بالعدول فأجابهم إلى ما طلبوا ورحل بعد قليل إلى جهات الساحل ليتفقد أحوال الحصون والمعاقل وليصلح ما يحتاج منها إلى إصلاح فسار من القدس إلى نابلس فنيسان فطبرية ثم إلى بيروت ثم إلى دمشق فوصلها يوم 26 شوال. ففرح الناس بقدومه وأغلقوا حوانيتهم لاستقباله والاحتفاء به ولا عجب إذ هم فعلوا ذلك لما للسلطان عليهم من فضل في حفظ البلاد ونشر لواء العدل وإخماد الفتن والثورات.

وما أن وصل صلاح الدين إلى دمشق حتى شرع في تنظيم شئون البلاد وتوزيع الأموال على المستحقين وتسريح الأجناد إلى بلادهم وجلس ينظر في شكاوى الأهالي «لينشر جناح عدله ويهطل سحاب إنعامه وفضله» وقد طاب له المقام في دمشق ومارس فيها رياضة الصيد هو وأخوه العادل وأولاده» ويتفرجون في أرض دمشق وموطن الظباء وكأن وجد راحته مما كان فيه من ملازمة التعب وسهر الليل ونصب النهار ويذكر القاضي ابن شداد أن بهجة دمشق أنست صلاح الدين ما كان اعتزمه من قصد الديار المصرية بل إنه أرسل إلى ابن شداد بالقدس يستدعيه ليكون إلى جواره في دمشق استدعاه صلاح الدين على انفراد يقول ابن شداد: «فدخلت عليه فقام ولقيني لقاء ما رأيت أشد من بشره بي فيه ولقد ضمني إليه ودمعت عينه رحمه الله».

وما زال على هذه الحال حتى خرج يوم 14 صفر سنة 589هـ لملاقاة الحجاج العائدين من مكة وكان لقاء رهيبًا تأثر منه السلطان وبكى وكم تمنى أن يكون معهم ليفوز فوزًا عظيمًا وكم تمنى أن يؤدي الفريضة ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن.

وما إن رجع صلاح الدين من استقبال الحجيج حتى غشيته (حمى صفراوية) وأخذ المرض يشتد به ويتزايد حتى أصبح في حالة خطيرة أيأست علاج الأطباء له والمهتمين به وما لبث أن انتشر خبر مرض صلاح الدين في دمشق فاضطرب الناس وخافوا «وغشيتهم من الكآبة والحزن ما لم تمكن حكايته».

وقد تكاثرت جموع الناس حول قلعة دمشق بين مستفسر يريد الاطمئنان وبين داع له بالشفاء ولم يؤذن لأحد بالدخول عليه سوى القاضي ابن شداد والقاضي الفاضل فكانا يلازمانه طيلة أيام مرضه.

وفي اليوم السادس لمرضه كان يجلس عنده القاضي ابن شداد فأحضروا له ماء فاترًا ليشربه عقب الدواء ولكن صلاح الدين شكا من شدة حرارة الماء ولما أحضروا له ماء ثانيًا شكا صلاح الدين من برده وقال: «سبحان الله ألا يمكن لأحدً تعديل الماء» وكان ذلك دون أن يغضب أو يصخب يقول ابن شداد: «فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي:

أبصر هذه الأخلاق التي أشرف المسلمون على مفارقتها والله لو أن حصل هذا لبعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره».

ويقول القاضي ابن شداد: «ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة وتناول من ماء الشعير مقدارًا صالحًا وفرح الناس فرحًا شديدًا.. وأخبرنا في هذا اليوم بأن العرق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله تعالى على ذلك.. ثم ذكر لنا أن العرق سابغ (أي عم جميع جسمه) فانصرفنا طيبة قلوبنا ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو السادس والعشرون من صفر فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال فأخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ بالفراش ثم في الحصير وتأثرت به الأرض.. وحارت في القوة الأطباء».

ولما رأى الملك الأفضل (نور الدين علي) أكبر أبناء صلاح الدين ما حل بوالده ولا رجاء في شفائه وأن الحالة التي يعانيها هي سكرات الموت استحلف الناس على أن يكون الأمر لوالده مدة حياته وله بعد وفاته.

ونسخة اليمين المحلوف بها مضمونها – كما ذكرها القاضي ابن شداد في كتاب النوادر السلطانية ما يلي:

«إني من وقتي هذا صغيت نيتي وأخلصت طويتي للملك الناصر مدة حياته وإني لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ممتثلاً أمره واقفًا عند مراضيه ثم من بعده

لولده الأفضل (نور الدين علي) ووريثه والله إني في طاعته وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي وامتثل أمره ونهيه وباطني وظاهري في ذلك سواء والله على ما أقول وكيل».

وفي ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة 589هـ وهي الليلة الثانية عشرة من مرضه ساءت حالة صلاح الدين وأصبح في حالة غيبوبة طويلة لم يفق منها إلا نادرًا فاستحضر أحد المقربين ليقرأ عنده القرآن الكريم حتى إذا وصل المقرئ إلى قوله تعالى: (لا إله إلا هو عليه توكلت) تبسم وجه صلاح الدين وتهلل وأسلم الروح لبارئها. وكان ذلك بعد صلاة الصبح يوم السابع والعشرين من صفر تسع وثمانين وخمسمائة.

لقد وقع نبأ موت صلاح الدين على المسلمين جميعًا وقع الصاعقة للصدمة الفادحة والمصاب الجلل ولنترك المجال للقاضي ابن شداد – وهو شاهد عيان – يصف لنا حالة الناس وغمرتهم الشديدة إذ يقول: «وكان يومًا لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ أن فقدوا الخلفاء الراشدين وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم وما سمعت هذا الحديث إلا بضرب من التجوز والترخص إلا في ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس.. وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على ذلك إلى

ما بعد الظهر.. وكان نزوله في حفرته قدس الله روحه ونور ضريحه – قريبًا من صلاة العصر ثم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر وعزى الناس فيه وسكن قلوب الناس فما وجه قلب إلاحزين ولا عين إلا باكية إلا من شاء الله ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع».

❖ وأخرج قريبًا من صلاة العصر في تابوت مسجى ببعض الثياب التي استحضرها الفاضل وعند مشاهدة الناس للتابوت انهمرت الدموع وعظم الضجيج حتى إنه خيل للسامع أن الدنيا تصيح صوتًا واحدًا.

- ودفن رحمه الله حيث مات في قلعة دمشق وبعد ثلاث سنوات من موته أعد له ولده (الملك الفاضل) قبرًا بجوار الجامع الأموي مكان دار رجل صالح اشتراها منه ونقل رفاته إليه في يوم عاشوراء بمحفل رهيب وجلس للعزاء بالجامع الأموي ثلاثة أيام كاملة.
- مات السلطان صلاح الدين وفي يوم وفاته فقدت الأمة الإسلامية رجلاً كان له في التاريخ ذكر وفي القلوب مكانة وفي النفوس احترام وإجلال وهيهات أن تلد الأمهات مثل صلاح الدين نبلاً وتضحية وإخلاصًا وجهادًا أكرم الله نزله ونور ضريحه وأعلى مقامه في أعلى عليين.

المراجع

وفيات الأعيان	ابن خلكان
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب	ابن واصل الحموي
الروضتين في أخبار الدولتين	محمد حلمي محمد
البداية والنهاية	ابن كثير
صلاح الدين الفارس المجاهد	شاكر مصطفى
صلاح الدين الأيوبي بطل حطين	محمد الصلابي
النوادر السلطانية	ابن شداد
الكامل في التاريخ	ابن الأثير

مواقع مختلفة على شبكة الإنترنت

فهرس المحتويات